محمد الماغوط

رسائل الجوع والخوف

عيسى الماغوط

محمد الماغوط

رسائل الجوع والخوف

المـــــؤلــــــف : عيسى الماغوط
عنوان الكتـــاب : محمد الماغوط
رسائل الجوع والخوف
الـنـاشـــــــــر : المدى
الطبــعــة الأولى : ٢٠٠٩
الحقوق محفوظة

Author: Esa Al-Magout
Title: Mohamad Al-Magout
Letters of Hunger and Fear
Al- Mada P.C.
First Edition : 2009
Copyright © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع ، أو نقله ، على أي نحو ، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية ، أو بالتصوير ، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك ، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً .

All rights reserved. Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

عيسى الماغوط

محمد الماغوط

رسائل الجوع والخوف

أقدم صورة عائلية للشاعر السلمية / ١٩٣٦ /

مقدمة

إذا كانت البئر تحتاج إلى ماء وإذا كان السلاح يحتاج إلى ذخيرة... وإذا كان القبر يحتاج إلى بكاء. وإذا كان العرس يحتاج إلى أهازيج... فإن الكتابة بحاجة إلى موهبة والى صبر، والى رغبة، والى معاناة.

منذ صغري كنت اقرأ لمحمد أخي... اقرأ ما يكتبه وما ينشره... وكنت أتمنى لو أكتب مثله. ولكني لم أكن أملك موهبته، ولا صبره، ولا معاناته.

وعندما ذهب إلى دمشق في وقت مبكر جعلني أدرك أن من سيجيد الكتابة يجب أن يذهب إلى دمشق...

فكما في البيدر نوارج وفي السجن.. محكومون وموقوفون... ففي دمشق هافانا تعج بالكتاب الناشئين والمخضرمين وشوارع وأرصفة... وصبايا.

وبما أنني لم أتمكن من الذهاب إلى دمشق والعيش فيها فقد بقيت في سلمية.. أبحث عن مكان آخر، أبحث عن الرزق المفقود عندنا، وإلى أي مكان....

سلمية كان فيها الجفاف... قد بدأ... والينابيع بدأت تنحسر والصبية أصبحوا شباباً وبدؤوا ينزحون.

وبقيت في سلمية، وصارت رسائل محمد هي مرجعي الأدبي والوجداني، وصرت أجيبه على رسائله وهو يجيبني على رسائلي. وصرت أجمع رسائله، وأحتفظ بها، وأنقلها من مكان إلى مكان... مثل الهرة التي تنقل صغارها من مكان إلى مكان...

وكتبت، ونشرت مثلما كان محمد يعمل، ولكن دمشق كانت بعيدة عني، وكانت الأبواب موصدة في وجهي...

كنت أذهب إليه كلما توفرت لديَّ أجرة الطريق... فأتفرج على دمشق وعلى بردى وعلى المعرض وعلى الهافانا، وأتفرج على كتّاب ذلك الزمان... ويعرِّفني محمد على من يحبه منهم.

ثم أعود محملاً بثيابه التي كان يعطيني إياها. وبذكريات دخول السينما، وسماع الأغاني من أجهزة الراديو الكبيرة التي كانت تزين كل دكان وكل مطعم وكل بيت. وبانطباعات مراهق عن مشاهدة صبايا... وطالبات... حاسرات الرؤوس ولا تلبسن السراويل الطويلة، ولا الأثواب الطويلة، ويمشين حفاة، ولا يوجد زبل على أقدامهن.

كنت معجباً بأخي وبثيابه وبأناقته وبطعامه وبأصدقائه. وكنت أتمنى لو أبقى بدمشق... ولكني لم أتمكن...

كانت إرادتي ضعيفة، وكان أهلي بحاجة إلى تأمين الطعام.... وقد كلفت نفسي بالعمل على تأمين الطعام لأهلي...

لم يكن في بيتنا شيء... نأكله... كان أبي يذهب بعيداً باحثاً عن الرزق، ويعود خائباً، ولم نكن نملك أرضاً...

وبقيت أجول في البلاد والقرى والمدن إلا دمشق فلم استطع الوصول إليها إلا بعد خمسين سنة حين أرسل محمد بطلبي بعد أن قعد، ولم يعد يتمكن من مغادرة البيت. وتقاعدت أنا من الوظيفة.

وصار هو بحاجة إلى من يرعى المسنين بينما كان صيته يجوب الآفاق.. بينما أنا لم يعد أحد يعرفني.

قمت بدور رعاية مسن إلى أن تحسن حاله كنت أطعمه بيدي وأضع له ولابنتيه الطعام الذي يشتهونه. كان يشتهي الطعام الذي تشتهر به سلمية، وكنا محرومين منه ونحن صغار. وكنت أعتني بنظافته الشخصية... وأقلل من استهلاكه للكحول والتبغ. وأمتعه بالحديث عن سلمية وذكريات الطفولة فيها.

ولكنه فجأة رحل... وبقيت أنا في دمشق.

ولكن دمشق هذه لم تعد دمشق منذ خمسين سنة.

فبدلاً من الأشجار التي تعطي الظل والخضرة والمواعيد... انتصبت الأكشاك.... والحاويات...

وبدلاً من مرافقة محمد إلى الهافانا وبعدها فندق الشام.... أصبحت أنا بحاجة إلى مرافقة إلى مشفى المواساة أو ابن النفيس.

وبدلاً من أشجار الغوطة النضرة انتشرت البيوت العشوائية وانتشر الفقراء...

وبدلاً من تدفق مياه بردى، تدفقت آلاف الشاحنات الصغيرة تنفث البشر والدخان الأسود.

وذهبت ابتسامات الصبايا، وذهب غناء محمد عندما كان ينام مزهواً بسورية الطبيعية وبالمتلهفين إلى تجميعها.

وبقيت في دمشق أجمع رسائله، وأكتب لها وعنها، ورغبت في أن يقرأها محبوه وقراؤه. وأن يتفرجوا على صوره، وكم تمنيت لو أكتب

أكثر.. ولكن الكلمات صعب جمعها لأني لم أكتب منذ زمن بعيد، ولأن ما كنت أكتبه كان لذلك الزمان البعيد.

دمشق في ٢٠٠٧/١١/١

عيسى الماغوط

مات وهو يردد قولاً قديماً: لو كان الفقر رجلاً لقتلته. ولكنه قتل نفسه أخيراً. وبقي الفقر.

أتذكره منذ الطفولة المبكرة، يصارع الفقر بالهياج. منذ أن كان في السادسة، وأنا في الرابعة... طفلاً أشقر جميل الصورة وعصبي المزاج، يحب الخروج إلى الشارع منذ أن يستيقظ من النوم.

كنا ننام في وقت مبكر، كان الشارع مضاء بفوانيس الدومري الذي كنا نراقبه. وهو يُنزل الفانوس عن العمود أو عن الجدار بعصا طويلة لها نهاية تمكنها من التقاطه.

يمسح الزجاجة بقطعة من القماش، ثم يضيف زيت الكاز، ويمسح الفتيل، ويعيد تركيب الزجاجة بعد إشعال الفتيل، ويضع المصباح في بيته الزجاجي ثم يرفعه إلى فوق.

كان ذلك الضوء المنبعث من المصباح جامعاً للأطفال من أجل اللعب، وتبادل الخبرات وأحياناً المشاجرات.

كانت ليالي الصيف في سلمية جميلة، وكان هواؤها منعشاً، ينسينا القيظ اللاهب في النهار.

أما ليالي الشتاء فكانت تحشرنا داخل بيوتنا وقد امتلأ جو الغرفة الوحيدة المخصصة للمعيشة بدخان الزبل المحروق الذي كان واسطتنا للتدفئة، وللطبخ، وكان والدنا يدعونا للذهاب إلى النوم في الغرفة المجاورة والباردة والتي أحياناً يصلها الدخان، ولا يصلها الدفء.

كان والدنا فقيراً جداً وبسيطاً وطيباً. بدأ حياته يتيماً من جهة الأم، ويساعد والده في العمل في الحقول.... لم يكن والده يملك أرضاً، وإنما كان يعمل في أراضي الغير... وينال في نهاية العام ربع المحصول... من قمح أو شعير.

عندما صار الوالد في العشرين تطوع في الجيش وبقي سنة يوفر نقوداً، ولكن والده ألحَّ عليه بالرسائل المتلاحقة من أجل أن يترك الغربة، ويعود لسلمية من اجل مساعدته.

وبعد رسالة محروقة من زواياها الأربع عاد إلى سلمية، وترك الجيش ومعه ما وفره من النقود حيث تزوج قريبة له وهي أمنا وكانت صغيرة السن وجميلة ويتيمة من الأم أيضاً مثل زوجها.

وبمهرها، أعطاها والدها منزلاً فيه غرفة كبيرة وساحة كبيرة، حيث انتقل إليه الزوجان بعد معاناة من الخالة زوجة الأب. وبعد معاناة من أبي الزوج أيضاً.

ثم قام والدنا ببناء دكان قرب الشارع، ووضع فيه ما كان متوافراً في ذلك الزمان من المواد الغذائية والصابون ولوازم السكان في الحي.

أدار الدكان بشكل جيد وتحسن أداؤه بسرعة خاصة وأنه الدكان الوحيد في الحي واستقطب الزبائن من الموظفين القادمين من خارج سلمية والذين كانوا يسكنون في حارتنا.

كانت المواسم خيرة والمياه وفيرة والأقنية الرومانية تمر فيها المياه العذبة، وتجوب جادات سلمية وبيوتها أيضاً.

وقد قضينا السنوات الأولى من أعمارنا في أوضاع معيشية جيدة وجميلة. من حيث تنوع الأطعمة المتوافرة في ذلك الزمن. ومن التردد

الدائم على الدكان حيث تغدق علينا كل ما نحتاجه من المأكولات والحلويات والموالح.... بالإضافة إلى ما يوفره من ربح يجعلنا نلبس الثياب الجميلة والأحذية الفاخرة حتى صار وضعنا الاجتماعي مميزاً.

ولكن تلك الطفولة الجميلة لم يطل عمرها كثيراً.... إذ ما إن دخل محمد المدرسة حتى وقع والدنا في مصيدة شخص غريب اشترى منه مواد الدكان كلها بمئة ليرة سورية بينما كانت الحرب الكونية الثانية في أوجها وبعد أيام معدودات تضاعفت الأسعار أكثر من ألف ضعف... وقد حزنت أمنا حزناً شديداً على بيع الدكان وفقدت رضيعها وهو في شهوره الأولى بسبب تأثره بحليب الأم الحزينة.

ولم نكن نعلم أن هذه الحادثة ستؤثر على أيامنا القادمة بشكل درامي... ولم نكن نعلم أن بيع الدكان كان بسبب انصياع صاحبه لطلب والده بالعودة إلى العمل معه في الحقول. فاشترى بقيمة الدكان حصاناً للعربة التي يملكها والده، وقام أخوه العائد من الجيش أيضاً بشراء حصان آخر. وذلك لخدمة العمل الزراعي الذي يديره الأب. وسرعان ما نفق الحصانان من الجوع بسبب غلاء الشعير والتبن، وبقينا بلا مورد تماماً.

كانت أمنا تبكي باستمرار على الدكان وعلى الوضع الذي بات بسبب بيع الدكان مزرياً تماماً. وحرمنا من كل شيء...

وصار والدنا يتخبط في حياته، ويعمل في الحقول بالأجرة أو بالمحاصصة. أو في المدرسة الزراعية، وصارت الأيام تمر ونحن جياع فعلاً والأم تفقد أطفالها.

وزاد بؤسنا إصابة أمنا أثناء نقلها الحطب من الحقول الجافة إلى

المنزل حملاً على رأسها. وأدت الإصابة إلى قعودها عن العمل والى معاناتها من آلام لا تطاق إلى أن عجزت عن المشي أو الوقوف ونحن حولها جياع وملتاعون.

وبعد المعالجات البائسة تفاقمت حالتها... وعلمنا أن المعالجة الصحيحة لا تكون إلا في حلب أو بيروت، ولم نكن نملك قوت يومنا فتبرع لها والدها بنفقات المعالجة، ورافقتها إلى حلب مع قريب لنا ثم إلى بيروت... بعد أن تركت طفلاً رضيعاً مات أثناء غيابها.

وبعد العودة لم تُجدِ تلك المعالجة... وعادت الآلام الشديدة.. فاقترحت عليَّ أمي أن أطوف على الدكاكين طالباً التبرعات. وقد استجبت فوراً وقمت بجولات مضنية من دكان إلى دكان ومن شارع إلى شارع ولأيام عديدة... تجمع لدينا مبلغ من المال اعتبرناه كبيراً... وسمع والد أمي بذلك فتوقفنا عن ذلك الأمر... وقدم مبلغاً إضافياً من المال. حين ذهبت أمي للمعالجة عادت على إثرها بعاهة دائمة وفقدان الطفلة التي كانت قد تركتها في البيت.

كنا أنا ومحمد مختلفين في كيفية التعامل مع الفقر.

كان هو يلعب في الحارة. وكنت أنا أتنقل من بيت إلى بيت لإرضاع الطفلة. وعندما تركتها يوماً واحداً وذهبت للعمل في الحقل... عدت لأجدها قد ماتت ودفنت ومحمد يضحك عليَّ بسبب فشلي في إبقائها على قيد الحياة لحين عودة أمها.

ربما كان الجوع الذي كان يعانيه محمد أشد إيلاماً من الموت لاسيما وأنه ذو عفة وكبرياء تمنعانه من أن يأكل عند أحد أو من يد أحد.

منذ بيع الدكان همنا على وجوهنا جميعاً، محمد كان في السادسة، ودخل المدرسة، وقد ذهبت الحلاوة الطحينية، وراحة الحلقوم، وذهبت القضامة المالحة، وصار رغيف الخبز هماً.

ومات أخي الرضيع بعد يوم واحد من بيع الدكان وماتت رضيعة ثانية في السنة التالية وصارت أختي الكبرى تحمل الزبل الساقط من الحيوانات العابرة لتجفيفه في ساحة الدار لتتدفأ، ونطبخ على ناره.

وانقطع عنا جدي لأبي الذي كان يتناول فطوره كل يوم في الدكان، فطوراً من العسل وسمنة الغنم.

وصرنا نذهب لبيت جدي لأمي القريب جداً من بيتنا ونرى هناك ما حرمنا منه منذ أشهر قليلة. خبز القمح والسمن ولبن الغنم.

وكان بيت جدي عسيراً علينا بسبب زوجته الجديدة وأولادها الذين يقفون منا موقفاً معادياً.

همنا على وجوهنا وصار الشارع ملاذنا، نلعب مع أولاد الحارة وخاصة في المساء، حيث النسيم العليل وضوء القمر والأولاد يأتون من كل زقاق إلى شارعنا العريض الذي تم إنجازه من أجل مرور قوات الحلفاء المنتصرين.

وكانت أمنا تعاني من خيبة رهيبة بسبب ذهاب الدكان وذهاب أي مورد. وبقي والدنا خائباً لا يلوي على شيء ويمارس أعمالاً شاقة لا يكاد مردودها يسد الرمق من خبز الذرة وخبز الشعير وأحيانا خبز القمح.

كنا في أتون رهيب من الفقر، والجوع، لا أحس به وبناره مثلما كان يحس به محمد.

كنا ننام معاً على فراش عتيق وضيق وعلى وسادتين محشوتين بنخالة القمح.

في الشتاء كان دخان الموقد يتصاعد من حفرة في وسط الغرفة، وفي الحفرة مخلفات يابسة وأغصان الدوالي اليابسة وأغصان شجيرات القطن اليابسة، والزبل الجاف.

وكنت إذ أردنا إشعال النار في الصباح وعندما تكون الجمرات المتبقية من الليل قد خمدت، أذهب إلى بيت جدي القريب لأحضر جمرة مشتعلة مغطاة بالتبن والزبل الجاف ومغلفة بقشور كيزان الذرة وقصب الذرة الجاف.

تضع أمنا ما أحضرته في أسفل الموقد، وتضع فوقه المواد القابلة للاشتعال، وتنبطح، وتنفخ باتجاه الجمرة حوالي عشرين مرة لحين اشتعال النار فجأة، نفرح بالنار، ونطبخ عليها حساء الصباح، أو نغلي عليها الشاي عند توفر السكر والشاي.

كنا نتعارك أنا ومحمد قرب الموقد ومرة من المرات انقلب على الموقد واحترق فخذاه وصرخ وولول، ولم يكن في تلك الأيام لا دواء ولا طبيب. وشفي بمرور الأيام وبقي مكان الحرق يشكل ندبة واسعة على كيس الصفن ولم نكن يومها نلبس سراويل.

ويأمرنا والدنا بالذهاب إلى النوم في الغرفة المجاورة، نذهب مكرهين، وكنت أنا أرغب في النوم وكان محمد لا يرغب في النوم مثلي، وإنما كان يسرد لي حكايات وحوادث جرت معه خلال النهار

ويضحك كثيراً من مقالب صنعها لرفاقه... أو من مقالب أحدثها الرفاق لبعضهم. وأضحك معه حتى يأتينا صوت من الغرفة المجاورة يدعونا إلى النوم...

كان يكتب وظائفه، ويحفظ دروسه بسرعة وعلى عجل... ولكن خطه كان جميلاً، ودفاتره كانت مرتبة، ونظيفة، وكتبه نظيفة وحقيبته نظيفة وجديدة... وكنت أحلم بعد عام أو عامين أن أصبح في المدرسة مثله.

كان يكتب وظائفه، ويقرأ، ويحفظ على ضوء الكاز الخافت الذي يثير الدخان والرائحة... ويكون منبطحاً على الحصير وعليها لباد من الصوف، وقد نشر حوله ما عنده من دفاتر وأقلام وكتب.

ولكنه كان ينتفض، ويترك كل شيء، ويصرخ في وجه أمه، ويقول إنه جائع... وتكون أمه منهمكة في شيٍّ حبات من البطاطا داخل الرماد وتطمئنه بأن العشاء سيكون جاهزاً بعد قليل.

وتتذكر أمه عاماً مضى على بيع الدكان، وكيف كنا نأتي من الدكان، لا نطلب طعاماً، لأننا نكون قد شبعنا مما تناولناه.

وتتذكر وهي تفرم البصل من أجل البطاطا أنه في العام الفائت وعندما كان محمد في الخامسة، كان يذهب إلى الشيخ لتعلم القرآن، كان يتأبط رغيفاً من خبز القمح بعد أن تكون قد غسلت له وجهه، وألبسته الثياب النظيفة، والحذاء النظيف في ذلك الزمان النظيف.

كان يعود من الشيخ، ليقرأ سورة، ويعيدها عشرات المرات، ويشير إلى التشكيل الموزع على كل حرف بعود مصنّع كأنه قلم رصاص. وعندما يحفظ سورته يضع جزء عمَّ في حقيبة القماش التي صنعتها له أمه، ويقوم إلى اللعب الذي لا ينتهي إلا بالشجار أو بالقمع.

عندما أنهى تعلمه عند الشيخ، أعلن الشيخ أن محمداً قد حفظ القرآن، وأن تخرجه سيجري بحفلة.

يومها ألبسوه ثياباً جديدة، ووضع القرآن في حقيبة ذات وشاح على كتفه، ومشى ورفاقه معه من منزل الشيخ علي عيدو إلى منزلنا، ووزعت السكاكر والحلويات والزبيب على الطريق... وعند الشيخ وفي البيت.

يومها كان الدكان موجوداً، وكنا نستطيع أن ننفق على ذلك الاحتفال، وتذكر الأم أن المهنئين كانوا يملؤون ساحة البيت وكانوا يأتون. وتروي وهي تبكي وهي تضع طعام العشاء المتواضع... وكان والدنا ينهرها، ويطلب عدم التحدث عن الماضي.

الطفولة المبكرة كانت جميلة، وكنا سعداء بألبستنا وطعامنا، وكنا نذهب مبكرين إلى دكان والدنا، ليعطينا الحلاوة والراحة، ويعطينا قروشاً أيضا نشتري بها من خارج الدكان ألعاباً كانت سائدة في تلك الأيام.

وكما تنقطع المياه، وتجف الآبار، وينحبس المطر، ويملأ الغبار الشوارع... انقطع رزقنا منذ بيع الدكان.

دخل محمد المدرسة، واجتاز المرحلة الابتدائية مثل لمح البصر... وكان يخرج إلى الشارع ليلعب مع الأولاد الذين تغص بهم الحارات والشوارع، وتعلم الألعاب السائدة، وأجاد، وتفوق.

وكان يعود إلى البيت متعباً مكدوداً، ليكتب وظائفه، ويحفظ دروسه، ولكن بسرعة ثم يخلد إلى النوم... بعد أن يقيم شجاراً بسبب نوعية الطعام المتدنية.

صارت حاجتنا إلى النقود أمراً ملحاً، وكان والدنا قد أفلس تماماً، وكان عمله لا يوفر إلا بضعة أكياس من القمح في نهاية الموسم.

وكان محمد الأحوج إلى النقود، ولم يكن من الممكن توفير قطعة نقد إلا ببيع بيضة دجاجة، أو ببيع قليل من القمح.

وكنت إذا عملت في الصيف في أحد المطاعم أعطيه وغصباً عني بعضاً من أجرتي، وأخبئ الباقي تحت التراب. وكان أحيانا يهتدي إلى المكان، ويأخذ بعضها أو كلها.

لم يكن شرهاً في تناول الطعام... يتناول لقيمات عدة، ويخرج إلى الشارع... واستمر طوال حياته لا يأكل كثيراً. وإنما كان يأكل كميات قليلة، ولكن مرات عديدة خلال النهار.

أما لباسه فكان أنيقاً جداً بحسب ذلك الزمان حيث كانت ألبستنا من البالة حتى في ذلك الوقت المبكر. ولكنه كان يُجري إصلاحات على ألبسته عن طريق قريبة لنا عندها ماكينة خياطة. يوّسع ويضيّق، يطوّل ويقصّر حتى يظهر لباسه جميلاً.

كان يسرح شعره بشكل جميل وكان وجهه مشرقاً. ولكن الحاجة إلى النقود كانت أمراً رهيباً لا سيما وأنه تعلم التدخين بشكل مبكر جداً، وكانت مصيبة بالنسبة لنا لأن التدخين رغم أنه كان معيباً حتى بالنسبة للكبار فكيف بالنسبة لفتى صغير وفقير خاصة وأن أهله لا يملكون طعاماً في بيتهم.

كان التدخين تتويجاً لما تعلمه في الحارة من رفاقه الذين يلعب معهم، وكانوا لا يشترون علبة كاملة وإنما هي عدد من اللفائف، يتوزعونها وأحياناً يشحذ بعضهم من الآخر وحتى أحياناً يتعاونون على لفافة واحدة. وأحياناً يتشاجرون.

كنا ننتظر مواعيد الأعياد بفارغ الصبر، ونستيقظ مبكرين جداً، نحمل مصاحفنا، ونذهب إلى المقبرة لقراءة سورة الرحمن علّم القرآن مقابل قروش وأحيانا فرنكات، لا نقرأ السورة كلها بل نتخطى أحياناً سطوراً وأحيانا صفحات. تعطينا المرأة التي تنوح على القبر ما يجود به خاطرها وحسب حالتها المادية.

نعود بعد شروق الشمس إلى البيت، نحصي نقودنا، وكان محمد يذهب خارج البيت بعد ذلك فوراً وينفق ما كسبه ويعود ليأخذ مما تبقى معي.

لم نكن نحصل على أسباب العيش من أحد، كان جدنا لأبينا فقيراً وقاسياً. بسبب زوجة الأب، ورحل مبكراً.

كنا نسمع أنه يسهر في مضافة الأمير، وينكر على الساهرين ادعاءهم باختراع المذياع... وأن المذيع يونس بحري يتكلم من برلين، وأن من في المضافة يسمعون صوته مباشرة ويقول لهم لا تصدقوا: إنها اسطوانات!!

وقد رحل مبكراً، ولا نذكره جيداً، ولا نذكر قرشاً واحداً حصلنا عليه منه لا في الأعياد ولا في غير الأعياد، وإنما نذكر أنه كان يحضر صباحاً أيام الدكان ويتناول فطوراً من الزبدة والحلاوة ولبن الغنم.

أما جدنا الآخر فقد كان موسراً، ولا يحضر لعندنا ولسبب زوجة الأب أيضاً.

لم نر جدتنا لأبينا ولا جدتنا لأمنا بسبب موتهما المبكر جداً. وكان جدنا لأمنا يقترح على والدنا أن نترك المدرسة، ونتعلم مهنة. ويقول له: هل تأمل أن يصبح أولادك موظفين عند الدولة؟ ويلبسون البدلات الرسمية؟

وكان والدي ينسحب من اللقاءات ويعود لأمي ويقول لها لن أخرجهم من المدرسة ولو شحذت على الأبواب.

وبقي جدي حياً إلى حين توظف محمد وتوظفت أنا أيضاً عند الدولة ولبسنا البدلات الرسمية.

وقد سمع اسمي يذاع من الراديو عندما كانت تُعلن نتائج امتحانات الشهادة المتوسطة أي "الإعدادية" في هذه الأيام أو ما سميت حديثاً شهادة التعليم الأساسي.

فقد بكى عندما سمع اسمي وقد كنت موجوداً بقربه.

وكان يسألني عن محمد لماذا لا يحضر لعندهم، ولا يدخل دكانهم أو فرنهم ولا يسلّم ولا يلقي التحية على جده عندما يعبر من أمامه.

كان محمد يتخذ موقفاً مبكراً من جميع الذين يمرون في حياته أو يمر في حياتهم.

بعد أن حصل على الشهادة الابتدائية أدخله والده المدرسة الزراعية، وهي مدرسة داخلية قريبة من بيتنا. وكان الطلاب يأتون إليها من مختلف المحافظات.

وقد عمل والده على التقليل من معاناته بقدر المستطاع. وكنت أنا أحسده على الطعام الذي كان يقدم له، وعلى الألبسة التي كان يلبسها، وعلى الدفاتر التي كان يستخدمها....

في المدرسة الزراعية لم يكن لدى الطلاب كتب، وإنما ينقلون على دفاترهم ما يكتبه المعلم على السبورة.

وكان محمد يكتب بخط جميل، ويرسم، ويلون بشكل يذهل معلميه ورفاقه...

ولكن عندما يحضر إلى البيت عصر الخميس من كل أسبوع، يحيل البيت إلى حالة من التشنج والهياج بسبب طلباته المدرسية، واحتياجاته الشخصية، وكان يرفض حالة انعدام النقود رفضاً رهيباً. وكان يكره الفقر كرهاً أسطوريا.

بينما كنت أنا أتعايش مع الفقر بود أسطوري أيضاً كأنه القدر، وأعمل في الصيف أعمالاً شاقة بالنسبة لسني لتأمين نفقات نثرية لي ولمحمد... وأحياناً أعمل طوال النهار لتأمين شراء عنقود من العنب أطعمه لأختي الصغيرة.

كان محمد يكره رفاقه في المدرسة الزراعية لأنهم غرباء... ربما. وكنت أنا أحب التقرب من الغرباء في حينا ومن أولاد الموظفين القادمين من شتى المحافظات للعمل في دوائر الدولة لسلمية، وكنت معجباً بألبستهم وبطعامهم وبأثاث بيوتهم وبلهجاتهم وبطريقة تعاملهم مع بعضهم أو مع أولادهم. بينما كنت أكره تعاملنا مع بعضنا، وتعامل أقاربنا معنا، وتعامل الجيران معنا. وكنت أكره الألبسة التي نلبسها والأثاث البائس في بيتنا وكومة الزبل التي تحتل مكاناً هاماً في ساحة دارنا.

كنا نلعب ذات يوم أنا وهو في باحة دارنا المزروعة بالخضار بين أشجار الرمان والتوت والعنب ونقوم بدورين حربيين من أفلام زورو التي كانت مشهورة يومه، ورميته بمقص الخياطة وكان بيدي فاستقر في ركبته، فتوقف التمثيل، وهربت أنا من البيت، وبقي هو واقفاً لا يسمح لأحد أن يقترب منه، وقد احضروا له رجلاً من مستوصف الحكومة، وسحب له المقص من ركبته، ومدوا له فراشاً ليستقر فيه أياما. وقد هربت أنا طوال النهار وقسماً من الليل حيث دخلت بيت جيراننا، وصرت أساعدهم في تقشير الذرة. وعدت إلى البيت بحماية أمي وبقيت بعيداً عنه هو في طرف الغرفة وأنا في طرفها الآخر. وقد حزنت عليه كثيراً، ولكنه كان يرغب في الانتقام مني، وأخيراً تصالحنا.

ذات يوم أيضاً أراد أن يأخذ مني العشرة قروش التي كنت أحتفظ بها للطوارىء. وقد تعاركنا بالأيدي وبالأرجل، وأطاح بي أرضاً، ثم تمكنت من أن أطيح به، وصار تحتي فوضع إصبعه في عيني، فصرخت "وكأننا كنا نقوم بمبارزة لها أصول - مثل المصارعة-" صرخت: عاالعين؟ فرد علي وهو يضحك: يم الزلف!!.

وضحكت والدتنا عندما سمعت ذلك، وقدمت نحونا، وخلصتنا من بعضنا، وانتهينا إلى تسوية بأن يأخذ هو خمسة قروش واحتفظ أنا بالخمسة قروش الباقية. وقد ذاعت وقائع هذا العراك.. وصار رفاقه وأخوته يقولون لي تهكماً: عاالعين؟

كان يحب اللعب في الحارة أكثر من أية حالة أخرى. يلعب ألعاباً جماعية، ولم أكن التحق بهم كثيراً، فلم أكن أجيد المشاركة في أية لعبة، وكان هو يجيد أية لعبة وكان ماهراً في العدو والاختباء... وفي لعب الدحل والطره والنقش ويكسب.

أما أنا فكنت إذا لعبت أخسر... وكان إذا ربح حبات جوز من لعب الدحل يعطيني.

كان لا يحب البقاء في البيت، بل يخرج إلى الشارع منذ الصباح أثناء العطلة الصيفية أو أيام العطل الأسبوعية أو أيام الأعياد. أو أيام العطلة الانتصافية.

يخرج إلى الشارع، ويركض باتجاه مجموعات من الأولاد موجودة في الزوايا، أو المنعطفات أو في ساحات غير مبنية. وكنت أنا لا أحب الخروج إلى الشارع، وإذا رغبت في ذلك فإنه يتوجه إليّ، ويطلب مني العودة إلى البيت. وكنت نادراً ما يكون لدي وقت للخروج إلى الشارع، ففي الصيف كنت أعمل عند أحد الحرفيين وفي أحد المطاعم. للعودة مساء ببعض النقود لألبي رغبة أمي التي كانت بحاجة أبدية إلى النقود. وإذا جمعت أو خبأت بعض القطع النقدية لمصروفي الشخصي كان محمد يستولي عليها، أو يعرف مكان مخبئها، فيأخذها أو يأخذ بعضها.

ذات يوم لم يكن لديّ عمل، خرجت إلى الشارع، وكان الفصل شتاء

موحلاً كثيراً وبارداً كثيراً، رماني ابن الجيران الساكنين قبالة بيتنا، ولم يكونوا من أهالي سلمية... رماني بحجر، فصرخت وركضت باتجاهه، وأمسكت به، ورميته أرضاً ورآني والده فرماني أرضاً أيضاً فصرخت. فركض محمد باتجاهي بسرعة كبيرة، وكان في مكان بعيد، وبدأ العراك مع الصبي وأخوته ووالده ثم خرج والدي، وبدأت معركة اشترك فيها الكبار والصغار، ثم أطلت أم الصبي من فرجة في باب دارهم ومعها بندقية، وهي تدعو زوجها بأن يتناولها، ويطلق علينا النار، أو يهددنا تهديداً فقط.

وكان محمد قد احضر عصا غليظة، وصار يمسكها بيديه، ويهوي بها على الفريق المعادي لنا، وقد انتهت المعركة بكدمات على رأس والدي، وتدخل رجال الحي، وفضّوا الاشتباك الذي لم يتكرر مثله طوال حياتنا، وانتهينا إلى مخفر الشرطة، وانتهى الإشكال بمصالحة بين الرجلين، وعودتنا إلى بيتنا، وقد بقينا متخاصمين لا نتكلم مع بعضنا طوال مكوثهم في حارتنا.

أتذكره عندما كنا صغاراً أكثر بكثير مما أتذكره في شبابه وكهولته... ولا أزال أتصوره وكأن المشاهد ماثلة.

ذات صباح أيقظني والدي منذ الفجر من أجل الذهاب مع عمي لجمع البصل، وبما أني أذعن دوماً، فقد خرجت من البيت، وأوصيت بالطفلة...

كانت في الشهر الثاني من عمرها، وقد تركتها أمها، وذهبت للمعالجة في بيروت. وكنت منذ الصباح في صيف تلك السنة أحملها كأني أم، وأتنقل بها من بيت إلى بيت لإرضاعها، صرت أعرف النساء المرضعات واحدة واحدة وأجعل لكل واحدة دوراً في إرضاع الطفلة التي توردت وجنتاها وزاد وزنها بشكل يزيد عما لو كانت في حضن أمها.

في ذلك اليوم الذي ذهبت فيه لجمع البصل... عندما عدت مساء استقبلني محمد في منتصف الطريق وهو يضحك. فسألته عن سبب استقباله لي وضحكه، فأخبرني بأن الصغيرة ماتت وقد تم دفنها قبل ساعتين من ذلك الوقت، ثم تركني، وذهب إلى رفاقه بينما أنا أجهشت في البكاء.

وعندما وصلت إلى البيت وجدت الوجوم والاستقبال البارد لي، ونسوة من أقاربنا وجيراننا ملتفين... وشعرت أن شيئاً من قلبي قد نزع ورُمي به بعيداً.

كان محمد يغضب داخل المنزل لأي أمر... بينما يمضي بسلامة وعذوبة في الشارع...

كان منزلنا مقفراً من كل ما هو بهيج... وعندما عادت أمنا من رحلة العلاج الثانية، ولم تر الصغيرة بكت بكاءً مراً. وبكى معها كل من في البيت. ولكن محمداً كان في الشارع. كان الشارع بالنسبة إليه المخدر الذي يخفف الألم، ولكنه لايلغيه.

كان ينغمس في اللعب مثل أبطال المباريات، وكان يصحو من النشوة عندما يدلف إلى البيت، ويرى الجياع موزعين والأسمال البالية والأم الراقدة والأثاث المزري... والزبل في ساحة الدار.

في يوم من تلك الأيام دعاه والده إلى الانتساب لحركة التحرير تقرباً إلى الحكومة... وكان رئيس حركة التحرير جارنا، ويمكن أن يفيده عندما يحصل على الشهادة.

غضب محمد من الاقتراح، وأمسك بالكتيب الذي أعطاه إياه والده وفيه مبادىء حركة التحرير ومزقه ورماه أرضاً فغضب والده، وضربه فهرع وحظي بسكين واتجه به إلى والده يهدده كما يبدو- كان في السادسة عشرة كما أتصور ثم تدخلت أمه وأنا وأخته، وانتهت المشادة، وأخذ والدي الكتيب الممزق، وأطلع جارنا عليه الذي استوعب المسألة، وقام بتهدئة الوالد، وطلب مقابلة محمد فرفض طلبه، وانتهى الأمر عند ذلك.

مع أن تلك الأيام كانت تؤدي بمن يقوم بأقل من هذا التصرف إلى المكتب الثاني وإلى السجن. لكن جارنا امتص الحالة بأريحية. بل قام بتوظيف والدي في البلدية بدلاً من العمل المضني في الحقول طوال عشرات السنين.

وكان هذا الإجراء من جارنا هدية لي كما فهمت، ومكافأة بسبب خدماتي لجيراننا منذ سنوات، وتنقلي بين مكتبه كمحام ومنزل أهله لتقديم الخدمات لهم.

كان محمد بحاجة دائمة إلى النقود ومن شدة حاجته إلى النقود كان قاسياً، ومن شدة حاجتي أنا إلى النقود كنت ساكناً.

كانت قسوة محمد تشبه قسوة أسد في غابة لا توجد فيها أية طريدة.

كان كثيرون غيرنا لا يملكون النقود وكانت المواد الضرورية للطعام موجودة في البيوت دون حاجة لشرائها. ولكن محمداً كان يحتاج إلى نقود في جيبه باستمرار، وكان لا يحصل على النقود إلا بشق النفس.

كان يرافق أولاداً يحصلون على نقود بطرق مختلفة كبيع قليل من القمح الموجود في بيوتهم أو بيع البيض بعد سرقته من بيت الدجاج. وكان في كل بيت قمح وبيض.

كان محمد عندما يرافق هؤلاء الأولاد يستفزونه بشرائهم الجوز أو الحلاوة الطحينية أو الهريسة. فكان يهتاج ويعمل في كل اتجاه للحصول على بضعة فرنكات.

كان قاسياً على أخواته، وكلمته مسموعة وكانت أمه تعمل له حساباً في كل لحظة يتواجد فيها فهو لم يكن موافقاً على الفقر، ولم يكن موافقاً على الرضوخ للفقر.

كان رافضاً، ولكنه لم يكن قادراً إلا على الهياج.

وكل المبادىء السائدة أو الأمثال الشعبية لم تكن تقنعه، تقول له عماته وخالاته أن يطول باله... وعندما سيكبر ستتوافر النقود ولكنه كان يرفض الانتظار... وكان على حق... لأن تلك الفترة هي التي تحتاج إلى الطعام والألبسة.

الظلام الذي كان يخيم على لياليا الشتوية لم يكن ليمزقه إلا الضوء القادم من المدرسة الزراعية عندما يحضر محمد عصر الخميس وينام عندنا ويروي أحياناً حكايات عن أيامه ولياليه... وعن الحوادث التي كانت تجري... وعن المدرسين وعلاقاتهم بالتلاميذ وكان يبهرني بأناقته رغم الفقر... لقد كانت ألبستنا من البالة عتيقة ومستعملة، ولكنه كان يجري عليها تعديلات لتبدو جميلة وأنيقة.

كان يسرح شعره بشكل جميل وكان وجهه مشرقاً وجميلاً.

وكانت عزة النفس عنده خطاً أحمر لا يمكن تجاوزه لا من المدرسين ولا من التلاميذ ولا من والديه ولا من أي كان... يكره أن يعرفه رفاقه أنه فقير، ويتشاجر مع أي شخص من وراء أية ملاحظة تنم عن ذلك...

حضر مرة إلى البيت يوم الخميس، ومن خلف باب الدار حمل عصا ضخمة كنا نغلق بها الباب ليلاً...

أخذ العصا، وخرج مسرعاً وبعد ساعات عرفنا أنه ذهب إلى السوق، وانتظر رفيقاً له من المدرسة الزراعية يمر، وباغته بضربة قوية على رأسه، ورمى العصا، وهرب إلى بيت عمته.

وتجمع الناس، وأخذوا الفتى إلى المستوصف، ليتم تضميد جراحه، وأخذوه إلى المخفر.

وسرعان ما طاف رجال الدرك يبحثون عن محمد، وحضروا إلى

بيتنا، وأخذوا والده، وطلبوا منه تسليم ولده وقد علمنا بمكان وجوده، وذهب إلى المخفر... كان والده خائفاً، ولكنه هو لم يكن خائفاً، وكانوا يسألونه عن سبب المشاجرة... وعندما طال انتظاره ورفيقه بجانبه معصوب الرأس، صرخ محمد بوجه رئيس المخفر طالباً إما حبسه أو إطلاقه بدلاً من ذلك الوقوف.

وأتذكر أن رئيس المخفر ابتسم، وطلب منهما هو ورفيقه - وعرفت فيما بعد أن اسمه ميشيل معلولي من دمشق - أن يتعانقا وأن ينصرفا.

كان يعتبر عزة النفس خطأ أحمر وكان يعتبر أن الفقر لايمكن احتماله. أو الصبر عليه حتى يمر.

كان يلعن الظلام ولا ينتظر لحين انبلاج فجرنا... كان يلعن ظلام الفقر الدامس، ولا يلوح في تصرفاته أنه آمل في زواله.

كان يرى وهو في الظلام أكثر بكثير مما أراه أنا وأنا أحمل شموع الصبر البائسة.

كل من كانوا حولنا كانوا ملاكاً لأراض زراعية وتأتيهم محاصيل وفيرة من الحبوب والثمار، وكان بعض الجيران من خارج سلمية كموظفين أو مهنيين ولديهم نقود وتدخل بيوتهم الحلويات والفواكه واللحم والنقود.

كان بيت جدي لأمي قرب بيتنا، وكانت ساحة دارهم تكوّم فيها محاصيل العنب والتين والمشمش واللوز. ولم يكن في ساحة دارنا سوى الزبل الذي كانت تجمعه أختي من الطرقات بعد مرور الدواب.

ولكنه رغم الزبل الذي يملأ ساحة الدار، يرى نفسه أفضل من أخواله أو أعمامه وأفضل من أولاد الموظفين وأولاد الملاك وحتى من أولاد الدرك.

يرفض رمي التحية على أحد بمبادرة منه ويرفض حتى تحية جده الذي كان يجلس أمام باب بيته، وكان يرفض الدخول إليهم حتى لا يرى عندهم المحاصيل المكومة. وليس في بيت أهله سوى الزبل.

واستمر لا يدخل بيت أحد... بينما كنت أنا أدخل البيوت كلها آملاً في الحصول على بعض مما عند الآخرين وأخذه لأمي الملتاعة بالحرمان.

عندما كبرت أدركت أن محمداً كان على حق في مسلكه تجاه الآخرين.

عندما كبرت عرفت أن عزة النفس التي كان يملكها لايستطيع أحد أن ينتزعها منه.

يمكن أن ينتزع الآخرون منه ما يستطيعون... ولكنهم وعلى مدى عمره لم يستطع أحد أن ينتزع منه عزة النفس، وهي الملاذ الذي حماه طوال عمره.

الأغنياء والتجار والمسؤولون لا يعرفون الجوع ورغم أنه لم يعد عندهم الوقت للجلوس إلى مائدة الطعام إلا مع بضعة مدعوين... هذا في هذه الأيام. أما أيام الجوع الحقيقي الجوع أيام الحاجة إلى الطعام لبناء الجسم والنفس معاً فكانت الطفولة.

كان الطعام متوافراً لدى الأغنياء والتجار والأمراء وموظفي الحكومة ولدى أصحاب الملكية الصغيرة ولدى المهنيين والحرفيين وحتى الشحاذين.. إلا نحن فلم يكن لدينا طعام.

وكانت أمي تكابر بقدر هائل من المكابرة وتدعونا إلى الصبر لحين العثور على مفتاح للفرج...

وكان محمد يطوح بمفتاح الفرج في الآفاق التي لا ترى. قال لي عندما ذهب لخدمة العلم إنه منذ أول خميس وجمعة ينزل من الثكنة، ويشتري هريسة من العمارة ثم يعود ويشتري ثم يعود ويشتري.. وينفق راتبه من أول خميس وجمعة.

كانت حاجته إلى التبغ مرعبة. قال على لسان أحد أبطاله: من قديم الزمان وأنا أرضع التبغ والعار.

وبعدما كبرنا صرت أذكّره بالهريسة من عند درويش بسلمية فيقول لي إن راتبه في الجيش كان يذهب على أكل الهريسة.

مثلما احتال أحد التجار على والدنا في مطلع الأربعينات واشترى منه الدكان، احتال عليه أحد في مطلع الخمسينات وأغراه بالذهاب معه إلى الغاب للعمل في مشروع لزراعة القطن.

ذهب مع مجموعة من قليلي الحظ والباحثين عن لقمة العيش مع صاحب المشروع... وصار يعاني من الجوع أكثر منا ونحن بدون معيل... وصار الاختباء من البعوض في الغاب أهم من زراعة القطن.

اتفقنا أنا ومحمد على الذهاب لعند والدنا في العطلة الصيفية وقد عملت أياماً في حفر الآبار لحين حصلت على نفقات الذهاب.

ذهبنا إلى حماه ومن حماه إلى مفرق الجسر، وهناك قال لي إنه سيبقى في الباص، وسيذهب إلى حلب، وطلب مني النزول والذهاب إلى مكان والدي ولا أذكر كم عانيت لحين وصلت إلى الجسر ولحين عرفت الطريق المؤدية إلى المشروع ومشيت على الأقدام لحين وصولي إلى مكان عمل والدي. فرح والدي بي كثيراً ورويت له حكاية محمد وكيف تركني فحزن لذلك، وانشغل باله عليه بالإضافة إلى زعله منه.

وقد عملت مع والدي، وساعدته، وعانيت من البعوض ومن الجوع إلى أن أعادني والدي بنفسه إلى سلمية.

بعد ظهر كل خميس كان يحضر من المدرسة الزراعية، يمكث قليلاً في البيت ثم يذهب إلى الشارع... وسرعان ما نسمع أنه تشاجر مع من يلعب معهم عندما يحاولون عدم إعطائه حقه الذي كان يكسبه بـ (لعبة الدحل) أو يسخرون من فقر والده.

حتى إنه كان يتشاجر مع الآخرين من أجلي أيضاً. كنت أنا لا أحب رد الاعتداء ولكن محمداً كان يتصدى. وكان يفضل ألا اخرج أنا إلى الشارع مثله. حتى لا أعرف أين يذهب، وأين يلعب ومع من يتشاجر.

في الصف التاسع الذي سينتهي بشهادة الدراسة المتوسطة الزراعية لازم الدكان- الذي كان دكاناً - وأصبح مثل غرفة فارغة، أرضها تراب، نرشها بالماء، ونضع عليها حصيراً ونجلس، ونقرأ، ونستلقي.

لازم ذلك المكان خلال عطلة التحضير للامتحان ودرس بهمة مذهلة وترك الحارة. وقدم الامتحان ونجح وحصل على الشهادة.

وقد كنت معجباً بدفاتره وبخطه وبرسومه.. وكان ماهراً في ترتيب الخطوط وفي الكتابة وفي رسم وسائل الإيضاح. لا أرى أن أحداً في عصره كان يملك تلك المهارة.

منذ أن نجح في الشهادة عمل والده على إدخاله الثانوية الزراعية بدمشق "خرابو" وأرسلني لمقابلة الأمير بسلمية لأطلب منه المساعدة لقبول محمد في هذه المدرسة الداخلية حيث الطعام والمبيت على نفقة الحكومة.

وقد قابلت الأمير، وأنا في الثالثة عشرة ونجحت المساعي، وتم قبوله بدمشق، وذهب في بداية العام الدراسي...

وصار يرسل لنا الرسائل الجميلة، ويصف لنا حياته في المدرسة الداخلية وعن تجواله في دمشق الجميلة يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع. وينام عند بيت عمه في المزة.

وقد درس الصف العاشر بتفوق وبدون أية مشاكل، وكنا نرسل له ما يمكن لوالده أن يستغني عنه من النقود، وكان والده يعمل عملاً مرهقاً وإضافياً من أجل إرسال النقود إليه.

وفي الصف الحادي عشر أي سنة البكالوريا صار يرسل رسائل لوالده فيها تشاؤم وتذمر من قلة النقود... ومن انعدامها أحياناً. ولفت نظري وكياني ووجداني اللغة التي كان يكتب بها رسائله، ويضمنها جملاً غريبة التماسك والبلاغة والمعاني الهيابة التي تشي، بما يريد الإفصاح عنه من الهياج.

وبما أننا لم نتمكن من تلبية طلباته من النقود وقبل أن ينتهي العام الدراسي وقبل الامتحان ترك المدرسة وذهب إلى دمشق سيراً على الأقدام، وصار يسعى لتأمين عمل في مرفق ما يعنى بالزراعة. وأرسل لوالده رسالة مؤثرة يقول فيها إنه ترك المدرسة ليتخلص من الحاجة إلى النقود ومن أجل الحصول على راتب يكفيه، ويرسل له ما يزيد منه إلى والده بدلاً من تلك المطالبة المستمرة. وإنه سيرسل لوالده قسماً من أول راتب يقبضه، ويخلصنا من العوز المزري الذي كان مخيماً علينا.

وقد وفى بوعده، وقضى فترة في دمشق كنا سعداء بأخباره، وبأنه لم يعد بحاجة إلى نقود نرسلها له وبالعكس صار يرسل هو النقود

لوالده، ويرسل لي الثياب الجميلة ويدعوني لزيارته بدمشق، وقد قمت بزيارته فعلاً، وبت عنده في غرفة في شارع العابد، وكان لباسه جيداً، وفي غرفته طعام ودفاتر وأوراق وأقلام.

وقد بدأ في الكتابة... وفي النشر بعد انقطاع أو انقطاعات أيام الدراسة.

كنت لا أعرف أن أتجول في دمشق... فأبقى اقرأ في الكتب والمجلات والجرائد التي كانت عنده، واقرأ كتاباته... المنشورة في تلك المجلات... ومنها ما هو معد للنشر.. وعرفت، وتيقنت أن كتاباته لا ينازعه في جودتها وفي مجال الصور المتلاحقة. وفي التشبيهات أحد.

وعندما يحضر كان يجلب الطعام والعنب.

يأكل قليلاً، ويدخن كثيراً، ويستلقي ثم يذهب إلى مقهى الهافانا، وأذهب معه، وأحياناً أبقى وأنا انتظره بفارغ الصبر...

كنت أنا بانتظار أن أكمل الثامنة عشرة وأتوظف بعد أن نلت الشهادة الإعدادية. وعندما عدت إلى سلمية حملّني ألبسة ونقوداً.

وأثناء عودتي شعرت أن الحياة في دمشق أفضل من أية حياة أخرى.. وأن الإنسان في دمشق يكفيه أن يرى دمشق... ويرى الهافانا، ويرى من يدخل إلى الهافانا ويعرف من هم...

وأنا في طريق العودة إلى سلمية كانت عباراته التي كان يرددها وهو مستلق في الليل عبارات فخمة وهيابة يتغزل فيها بسورية، سورية أنطون سعادة التي كان يعشقها على شكل عبادة صوفية.

استمرت وظيفته أشهراً معدودات، وتبلغ بوجوب الالتحاق بخدمة العلم.. حضر إلى سلمية وتم سوقه إلى الخدمة جنوباً وأنا تم تعييني

معلماً، واتجهت إلى قرية شمالاً، ما إن عرفت عنوانه أثناء الخدمة وعرف عنواني في القرية حتى صرنا نتبادل الرسائل.

وكانت الرسائل في ذلك الزمن وسيلة راقية جداً للإفصاح عما في النفوس من محبة ولوعة وشجن.

لكن الأيام الجميلة لا يطول عمرها، وليست أكثر من محطة قصيرة بين فترتين من العذاب.

ما إن شعر الوالد المتعب والأم المتلهفة للرخاء... بأن مرحلة جميلة قد بزغ قمرها حتى اغتيل عدنان المالكي، وذهب محمد إلى سجن المزة، وعتم قلبي عليه واغتم، وصرت أنا وحدي في قرية نائية أشعر تجاهه بشعور الأم التي سقط رضيعها عن كتفها.

وتسرب إليّ شعور مظلم بأنه لم يعد لنا مستقبل.. وأن الأم المكابرة التي كانت تنتظر أن تتباهى بالرفاهية قد أُسقط في يدها...

في العطلة الصيفية ذهبت إلى دمشق، وزرته في سجن المزة العسكري، وقابلته، كان مصفراً وممتقعاً ونحيفاً وكئيباً. وعندما طلب منه الحارس أن يعود إلى مهجعه أحسست انه لم تعد توجد أرض أضع عليها قدميّ.

بقي في سجن المزة العسكري حوالي تسعة أشهر، أطلق سراحه بعدها، ونزل مشياً إلى بيت عمه في المزة وقد نما شاربان ذهبيان على وجهه... ويقول إنه كان لا يلتفت إلا أمامه في طريقه إلى بيت عمه.

وهنا يمكن أن نقول إن الشجاعة التي كان يتحلى بها إلى حد التهور لا بد أن تكون قد قصفت، وإن الخوف من الحكومة ومن الشرطة قد ذر قوته في قلبه.

قال: ما إن أرى ورقة مطوية
أو قبعة من فرجة باب
حتى تصطك عظامي
ويهرب الدم من عروقي
وكأن مفرزة من شرطة السلالات
تلاحقه من شريان إلى شريان.

ثم أكمل خدمة العلم في دمشق، استمر يكتب لي الرسائل... وأنا في الصيف أذهب لزيارته، وأنام عنده، وأقرأ كتاباته المدهشة، ويعطيني ثياباً، ويعرفني على أصدقائه مثل محي الدين صبحي، وزكريا تامر، وياسين رفاعية.. وفي الهافانا يقول لي هذا الذي دخل هو فلان وهذا الذي خرج هو فلان... وهؤلاء هم فلان وفلان وفلان.

وكنت أشعر بزهو كبير عندما أشاهد شخصاً وجهاً لوجه واسمه

مطبوع في مجلة أو كتاب، وكنت أشعر بزهو عندما يقولون إنني أشبهه كثيراً.

وعندما كنا نخلد إلى النوم كان لا ينام فوراً، وإنما يستلقي، ويردد جملاً يمتدح فيها سورية ويمتدح سعادة.

كان يكتب أجمل القصائد، وهو يؤدي خدمة العلم... ويسأل عنه نزار قباني، يريد التعرف عليه فيشيرون إلى شاب في العشرين من عمره يلبس بدلة عسكرية بائسة.

ما إن أتم الزمن المحدد لخدمة العلم... حتى صار في الشارع بلا طعام ولا مورد، ولم يكن بمقدوره الاستمرار في دمشق مع الفقر وانعدام العمل وربما انعدام الأمل...

لم نسمع إلا إنه أصبح في لبنان... وقد أخذ معه قصائده التي كان كتبها في دمشق، ولم توجد واسطة للاتصال به في تلك الأيام، ولكن كنا نقرأ مقالاته في جرائد أو مجلات. وزرت مرة محي الدين صبحي فأعلمني بأنه يراه، وأن وضعه المادي والأدبي في تحسن مستمر.

وقد صارت له زاوية في جريدة البناء... وأصدر ديوان شعر "حزن في ضوء القمر" ومعظم قصائده من كتابات كان يكتبها وهو في دمشق أثناء خدمة العلم ومنها:

أغنية إلى باب توما.

حلوة عيون النساء في باب توما
حلوة حلوة
وهي ترنو حزينة إلى الليل والخبز والسكارى
وجميلة تلك الأكتاف الغجرية على الأسرّة

لتمنحني البكاء والشهوة يا أمي
ليتني حصاة ملونة على الرصيف
أو أغنية طويلة في الزقاق
وفي نهاية القصيدة:
أشتهي أن أقبل طفلاً صغيراً في باب توما
ومن شفتيه الورديتين تنبعث رائحة الثدي الذي أرضعه.
لقد استمر طوال حياته يشتهي أن يقبل طفلاً صغيراً يرضع من ثدي أمه.

وشام وسلافة لم ترضعا من ثدي أمهما... وأيام شام توسل محمد لسنية وقال لها:

أقبل قدميك مقابل أن تدعي شام وكان عمرها ساعات أن تضع فمها على ثديك، وأن ترضع ولو نقطة واحدة... ولكن سنية رفضت... لأنها كانت متخذة قراراً بعدم الإرضاع من ثدييها.

واستمر هذا الشعور... لقد شاهدته مرة يحمل ابنة نوّار أيام أشهرها الأولى ويقبلها ويقول آه كم أحب رائحة الأطفال... وكم أحب رائحة حليب الثدي، وكم أحب شذا بودرة الأطفال.

وقد حُرم من كل ما يحب... فهو لم يشم رائحة حليب الثدي الذي في بيته ولا رائحة المطبخ أيضاً قال لي مرة: إن سنية لم تطبخ له طبخة واحدة في حياتها وإن بناتها مثلها.

أخذ قلبنا معه إلى لبنان، وبقينا نتحسر.. ولكن أمه كانت بطلة، فقد ذهبت لرؤيته، ولم يكن يومها الذهاب إلى لبنان مسموحاً به، وذهبت، وبقيت عند أحد أصدقائه أياماً ومعها أخي الأصغر مني.

وعندما عادت كانت سعادتها لا توصف عندما كانت تروي لنا العز الذي وصل إليه والمجد الذي وصل إليه... وكيف أن الناس هناك وهم معارفه من الصحفيين والشعراء يحبونه. عادت من بيروت ومعها مجلة فيها ريبورتاج عنه والمجلة باللغة الفرنسية، وفيها صور له مكتوب تحتها: أنا متشرد وجريح.

في سني وجوده في لبنان لم نكن على اتصال أيضاً... لا رسائل ولا اتصالات هاتفية وإنما من يحضر من لبنان يقول لنا إنه يشق طريقاً صاعداً ناجحاً وصار له قيمة في لبنان... وكنا نزهو به عن بعد.

وهذا الزهو كنا نعتبر أنه سينمو، وسيكبر، ولكننا فوجئنا بمحاولة انقلابية للقوميين في لبنان عام ٦١ وسمعنا باعتقاله في لبنان، وبعد أشهر سمعنا انه تم تسليمه إلى سورية، وأنه معتقل في سورية وقد قابلت شتيوي سيفو يومها وسأل لي عنه، وتأكد من وجوده، وطمأنني عليه.

وصرت اقرأ رسائله التي كان قد أرسلها إليّ أيام دمشق...

عام ١٩٥٧ كتب لي:

هل قرأت قصيدتي الأخيرة يا عيسى؟ جفاف النهر!...؟

لقد قرئت بصوت عال في المقاهي وقالوا عنها رائعة.

كلمة واحدة والطبول الكبيرة تقرع لما يجهضه الأقزام والمشوهون.

وكان على بصيرة لن تتكرر عندما قال:

لا نجوم أمامي

الكلمة الحمراء الشديدة هي مخدعي وحقولي

كنت أود أن أكتب شيئاً عن الاستعمار والتسكع

عن بلادي التي تسير كالريح إلى الوراء..!

قال أدونيس: إن المتنبي أخطأ في سعيه لمنصب في دولة سيف الدولة الحمداني - لأنه بقي خالداً بدون منصب. بينما أصحاب المناصب طواهم النسيان.

محمد لم يقع في خطأ المتنبي، وتوجع على بلاده التي تسير كالريح إلى الوراء، بلاده الفقيرة والجائعة.

يكتب إليها ولا يراها.

هو وحبيبته ورصاص الانحدار

والمحارم الوحيدة التي تلتقط دموع العالم.

أقرأ رسائله التي كان يرسلها لي، وأتحسر عليه كما أتفقد ثيابه التي كان أرسلها لي أو أعطاني إياها عندما ذهبت لعنده وأتأثر.

وأتذكره كيف كان شهماً وكيف كان سخياً. وأتذكر كتاباته التي كانت تنشر له في مجلة الآداب وفي جريدة النقاد.

وأتذكر عندما حضر لسلمية بعد أن توظف كيف ينفق بسخاء عليَّ وعلى أهله وعلى رفاق حارته وأتذكر رفاق طفولته كيف صاروا شباباً وصار قوياً مثلهم يتبادلون التحية الخاصة بالقوميين. وأتذكر إعجابه بقصة قصيرة نشرتها في مجلة الرقيب، وشاهدته يتحدث مع القاص الكبير آنذاك "محمد حيدر" عن هذه القصة وقرأها له، أعجب بها بشكل أذهلني وكما أثلج صدري موقف محمد أخي... خاصة وأنه لم يكن يبدي إعجابه بكتاباتي.

قضى سنوات في لبنان، وذاع صيته هناك ونسمع بعض الأخبار عنه. سمعنا انه ملاحق بسبب مقال كتبه في جريدة البناء وبعد فترة سويت المسألة بعد أن تطوّع ستون محامياً للدفاع عنه.

أصدر "حزن في ضوء القمر" وفيها قصائد كتبها في سورية... وكتب "المهرج والمارسيليز العربي" وسمعنا أن رئيس الجمهورية حضر المسرحية.

وقد قال لي بعد أن عاد إلى سورية أن كميل شمعون طلب التعرف عليه وهو في جريدة البناء وقد كان ذلك عام ١٩٥٨ فُتحت الغرفة وظل محمد خلف طاولته!

وقد بدا عليه الإعياء... قالوا له هوذا...! فقال له شمعون: يبدو أنك نعسان؟ فأجابه محمد: نعسان.... ولكنكم أنتم نائمون.

فاستدار شمعون وخرج. وكان محمد يعني ما يقول. حيث كان النشاط المخابراتي في لبنان القادم من مصر وسورية في أوجه.

قضى سنوات جميلة في لبنان قضاها في الكتابة في الشعر والمسرح والمقالة كان يسكن أحياناً عند رفاق له وأحياناً وحده وأحياناً يحل ضيفاً لفترة غير محددة...

قال لي إنه ذهب مرة مع مذيعة بدعوة إلى غداء في بيت أهلها، وكان والدها قصاباً، فتغدى عندهم لحماً مشوياً، ونعس ونام، وعند المساء قدموا له لحماً مشوياً أيضاً... وبات عندهم... وعند الصباح قدموا له لحماً مشوياً أيضاً إلى أن ذهب إلى جريدته.

وقال لي إنه كان يحب الطعام كثيراً، ولم يكن يهمه ما يكتب عنه بقدر ما كان يهمه إذا زار أحداً أن يقدم له طعاماً.

وقد ذكرني بكتاباته في دمشق عندما لم يكن أحد يقدم له طعاماً عندما يقول:

ليس في أحشائي سوى القهوة الباردة.

أقرض خدودي من الداخل...

الجوع ينبض في أحشائي كالجنين.

بعد السنوات الجميلة والتي نال فيها تقديراً وشهرة، فوجئنا بالمحاولة الانقلابية للقوميين وعن اعتقاله في لبنان.

وانتظرنا إلى أن سمعنا أنه جرى تسليمه إلى الحكومة السورية - وكان وقتها انفصال، ذهبت لدمشق، وسألت عنه وقيل لي لن يطول وقت احتجازه.

ذات يوم من صيف عام ١٩٦٢ فوجئنا به يفتح باب الدار، ويدخل وليس معه شيء يحمله بعد غياب سنوات. وكانت فرحتنا تشبه انبثاق نبع ماء من بين صخور جافة.

وسرعان ما تدفق الأقرباء والأصدقاء إلى بيتنا وصار عندنا عرس ليس كمثله عرس كان يتكلم اللهجة اللبنانية... ويعانق ويصافح، ويضم، وكان أهله يرقصون فرادى وجماعات وهو يصفق للراقصين وينظر حوله للتعرف أو للتذكر.. ولم تمض أيام قليلة حتى ألقي القبض عليه من جديد لوجود مذكرة قبض بحقه في سلمية واقتيد إلى دمشق وأفرج عنه بعد أيام قليلة...

ذهب إلى دمشق، ولم يمض وقت طويل حتى صرنا نسمع صوته في برنامج "ليل ونجوم ومحمد الماغوط".

ثم صرنا نقرأ له زاوية في جريدة الرأي العام "بالعربي الفصيح" وكانت لنجاة قصاب حسن، وذكر نجاة قصاب حسن أنه قد خاف على الزاوية بعد أن تركها، ولكنه عندما قرأ لمحمد الماغوط أذهله وقال إنه كان هو ينتقد ويخدش في انتقاداته، ولكن محمد الماغوط كان كالجزار يقطع اللحم والعظم معاً.

ثم صدرت له "غرفة بملايين الجدران" وقبض قيمتها ألف ليرة سورية، وكنت عنده في بيته عندما أحضر الألف ليرة وطلب مني أن آخذ النقود إلى سلمية. وفعلاً فقد وضع المبلغ في جيب سترتي الداخلية، وأحضر إبرة وخيطاً وخاط فتحة الجيب حتى لا يسرق المبلغ مني، أو يسقط.

وجئت إلى سلمية فرحاً، وقد طلب مني ألا أخبر أحداً، ولكني لم أستطع، فقلت لأمي التي لم تقبل المكان الذي خبأت فيه المبلغ بل خلعت باب خزانتي، وأخذت المبلغ وطمرته في تراب أرض الدار.

ولم أجد المبلغ بعد ذلك لأن محمداً حضر في غيابي وأخذه كمصروف له أثناء ذهابه للكويت في تلك الأيام من أجل العمل الصحفي، ولم يوفق، وعاد بعد أن أنفق المبلغ. عاد واستأنف الكتابة، وسطع نجمه حتى ٨ آذار حيث ذهبت الرأي العام وبالعربي الفصيح وزاوية "ليل ونجوم" وألقي به في الشارع حيث أسرعت واستأجرت غرفة في العمارة، وسكن معنا، وكنت مع زوجتي وطفلتي الصغيرة.

وصارت سنية تأتي أيضاً وتنام معنا في الغرفة... وكان همي أن أتوظف في دمشق بعد الحقوق ويبقى محمد معي... ولكن والديَّ كانا يرفضان وحتى محمد لأنهم يريدون راتبي قريباً من المتناول.

ذلك الصيف الذي قضيناه سوية كان جميلاً، كنت أتمنى البقاء في دمشق طوال العمر.

شغلته طفلتي عن همومه، وصار لا يفارقها وقد أسعدني وأمها ذلك، وقررنا ألاّ نفترق... وأن انقل وظيفتي إلى دمشق...

ولكن أبي وأمي حضرا من سلمية، وأخذاني عنوة من أجل الإنفاق عليهما، وقالا لي بأنه لو بقيت في دمشق فإن الراتب لا يكفي.

عدنا إلى سلمية، وتركنا محمد في الغرفة. لأقضي ثلاث سنوات في التعليم الابتدائي دون أن أحصل على وظيفة على أساس الحقوق. إلا بعد هذه السنوات الثلاث بعد أن بقي وحده، التفت إلى نفسه وماذا سيحدث له، واستأجر غرفة بعد أن ترك غرفتنا، وترك أغراضنا لأصحاب تلك الغرفة.

غبت عنه فترة طويلة، قدمت مسابقات، وتوظفت في حلب واعتبرت أن قدري ليس في دمشق... ودمشق ليست لي... وقضيت سنوات وأنا حاقد على نفسي، ولم أعد أذهب إلى دمشق... ولم يعد يعنيني شيء في دمشق.

وانكفأت بسبب الوظيفة، فيها دوام صباحي ودوام مسائي... وليس فيها عطلة صيفية.. وقضيت السنوات الطوال على ذلك المنوال...

ومحمد بدأ في التحرك... فشاهدنا له مسلسل "حكايا الليل" في أواخر الستينات، وتعرف على دريد لحام في بداية السبعينات، وكان هذا التعرف بداية مرحلة هامة في حياته... إذ تشجع على استئناف الكتابة للمسرح، وكتب "ضيعة تشرين" وقدمها لدريد لحام الذي مثلها وأخرجها... وذاعت شهرتها. وقدمت مردوداً مادياً لمحمد، فاشترى منزلاً في المزرعة، وصار ينفق كثيراً، وعندما كان يذهب إليه أحد من أهله كان يذهل من إنفاقه وتبذيره. وأعجبت به أمه من جديد لأنه صار يعطي بدلاً من أن يأخذ.

وذاع اسمه بين الناس، وعلا مركزه الاجتماعي وغبت أنا عن أنظار الحياة والأذهان لمدة تزيد على ثلاثين سنة.

صرت إذا حضرت إلى دمشق أجده قد سبقني ملايين السنين، ولا يعبأ بي كثيراً، وأعود محملاً بالألبسة والأحذية من عنده.

ولم تعد تبهرني الأدبيات والنظريات.. والمواقف السياسية بقيت طوال حياتي متلهفاً للحياة في دمشق دون أن أتمكن، ولم استطع الوصول إليها إلا بعد أن كان الذي ضرب ضرب والذي هرب هرب... وكنت قد أحلت على التقاعد ومحمد مريض وشبه مقعد. وعاد يعبأ بي من جديد، ويهتم بكل ما أقوله أو أفعله... بعد أن قضى سنوات لا يكاد يتعرف عليَّ وعلى أسرتي التي تكونت.

عدت إلى العناية به... وتذكرت أنه لا يمرض عادة... وتذكرت أنه عندما كنا نسكن في غرفة بدمشق سوية حدثت معه ذبحة، وكانت سنية معه يتمشيان، وأعادته إلى البيت واعتنينا به إلى أن شفي.

عدت إلى العناية به ونقل اللحم والبيض واللبن من سلمية إلى دمشق كل أسبوع أو كل أسبوعين، وكنت أطبخ له ولشام وسلافة...

إذا كانت "المهرج والمارسيليز العربي" لم تقدما له سكناً وطعاماً ورفاهية، فقد قدمتا له شهرة واعتباراً... ووضعتاه في مصاف العالميين.

فإن "ضيعة تشرين"، و"غربة"، و"شقائق النعمان"، و"كاسك ياوطن"... أدخلت على حياته معنى جديداً من نعيم الرفاهية والتخلص من الاحتقان.

كتاباته يوم كان في العشرين لم يعد يجيد إعادة كتابتها، ولا أحد يجيد كتابة مثلها. ولكنها لم تكن تقدم له مدفأة في الشتاء، أو كأس عصير في الصيف.

مات عند الغروب وهو يغني
من قديم الزمان، وأنا أرضع التبغ والعار
أحب الخمر والشتائم

والشفاه التي تقبل ماري
ماري التي كان اسمها: أمي
حارة كالجنوب
سمراء كيوم طويل غائم
أحبها وأكره لحمها
المشبع بالهمجية والعطر
والشفاه المقرورة الخائفة
تنهمر عليها كالجراد
لتأكل ماري..
الأفران مطفأة في آسيا
والطيور الجبلية البيضاء
ترحل دونما عودة
في البراري القاحلة

وصار يحضر الاجتماعات ويذهب إلى المؤتمرات ويناقش في السيناريو وفي الإخراج...

وصار يسهر حتى الصباح... وسنية تدور حول نفسها. وتكتب لنفسها وتلوب خوفاً من أن يحرمها المرض القادم ابنتيها.

في أواخر السبعينات ذهب إلى الإمارات مع سنية وشام وسلافة، واستلم الصفحة الثقافية في جريدة الخليج، وعادت سنية مريضة ثم عاد محمد.... وهو يقول إن الحر هناك لا يطاق... وإذا كان احتمال الحر من اجل النقود.... فإن دمشق نفسها فيها نقود.

وصارت كتاباته القديمة أيام كان في العشرين هي التي تقومه وتعطيه حجمه... وليس الغناء على المسرح.... والسخرية السياسية المستهلكة.

: وطني

أيها الجرس المعلق في فمي
أيها البدوي المشعث الشعر
هذا القلم الذي يصنع الشعر واللذة
يجب أن يأكل يا وطني...

وتتفاقم الإشكالية من وراء ظهره... القلم الذي يصنع الشعر واللذة يحب أن يأكل...

ولكن هذا القلم إذا أكل فإنه ينام.
كنت أود أن اكتب شيئاً عن الاستعمار والتسكع
عن بلادي التي تسير كالريح إلى الوراء
وفي نجوم وأمطار في غرفة بملايين الجدران
يا أهلي يا شعبي
يا من أطلقتموني كالرصاصة خارج العالم
الجوع ينبض في أحشائي كالجنين
إنني اقرض خدودي من الداخل

وتتفاقم الإشكالية من وراء ظهره، القلم إذا أكل فإنه ينام.

قضى عمره وهو يشعر أن الجوع ينبض في أحشائه كالجنين. ورغم أطنان الطعام والطناجر والصحون بقي جائعاً.

قال لي: إنه لم يشم رائحة طعام يطبخ في بيته!.... قطُّ....

وأنه يبحث عن ثيابه فلا يجدها...

ويزيد عدد البدلات، ويزيد عدد القمصان، ويزيد عدد الأحذية، ويزيد عدد الجوارب وعندما يبحث عن شيءٍ ما لا يجده...

:قلت لها عطشان يا دمشق

قالت: اشرب دموعك

قلت لها: جوعان يا دمشق

قالت: كل حذائي

ما من باب مغلق فتح لي ذات ليلة وقال: أيها الغريب

اضربوها بالسياط

اطردوها من الأبواب والكتب والحانات والأعراس والمآتم

وأغلقوا في وجهها كل أبواب العالم

لتظل وحيدة كالريح.... كالله

ولكن اسملوا عيني قبل أن تفعلوا ذلك

لأنني أحبها يا رجال

ولن أخونها ولو ذرفت الكسور الدورية للدموع

عندما عرضت ضيعة تشرين كان يهتم قبل العرض وبعده بملاحظات يوصلها إلى العاملين في المسرحية... ولا يستقر كثيراً، ويتنقل من مكان إلى مكان...

في نهاية عرض المسرحية في أول أيامها التي حضرها الرئيس حافظ الأسد... كان دريد يركض - كما يقول محمد - ويقول له إن الرئيس خارج قصر الاتحاد يريد أن يسلم عليه....

ذهب محمد إلى خارج المسرح، وكان الرئيس وحوله خلق... فاتجه إلى محمد وعانقه.

يقول محمد: إنه لم يسلم على أحد إلا على حافظ الأسد، ويبدو أنه يسدد ديناً قديماً. ففي عام ٦٣ وفي الأيام الأولى لثورة الثامن من آذار كان محمد مضطرباً جداً وخائفاً جداً. كان مرة في مقهى أبي شفيق ونظر إلى أمام فشاهد ضباط ٨ آذار وقادتها... فقرر أن يلقي التحية عليهم... مر من أمام طاولتهم ورفع يده بتثاقله المعروف وحيا... وقال: السلام عليكم.

قال لي: أنه لم يرد عليه السلام ولا شخص من كل تلك المجموعة سوى حافظ الأسد. رغم أنه كان يوجد بينهم من كان من سلمية... ومنهم من كان يعرفه.

لم يرد السلام سوى حافظ الأسد وبعد عشر سنوات يعانقه حافظ الأسد.

تسللت إلى ذاكرتي حكاية رد السلام عام ٦٣ والعناق عام ٧٤ وأضاءت لي فهماً جديداً لمسيرة حياة محمد... فمنذ مطلع السبعينات عاد اسمه للظهور في الصحف والمجلات وفي الإذاعة وفي التلفزيون...

صار يكتب زاوية "عزف منفرد" مع زكريا تامر في تشرين وصار يكتب ضيعة تشرين... وعين رئيساً لتحرير مجلة الشرطة. قال لي علي ظاظا الذي كان وزيراً للداخلية يومها إنه كان يحبه، ويعتز به، ويفخر بكونه يعمل في مجال إعلامي عائد لوزارة الداخلية.

وانتقل من بيت بالأجرة في أبي رمانة إلى بيت ملك في المزرعة. من عائدات ضيعة تشرين... وفقدت سنية ابنها في حالة إجهاض كارثية في أبي رمانة.

وفي المزرعة أنجبت شام وسلافة وفي نهاية السبعنيات مرضت، ويئست، وسافرت، وعادت... ثم ماتت عام ٨٥ .

كتب محمد في السبعينيات معظم مسرحياته وأفلامه ومؤلفاته... وكانوا يعيدون له طباعتها بإخراجات مختلفة ويقدمون له مالاً. وكان ينفق على الطفلتين كثيراً وقد وعد أمهما قبل موتها بأن لا يُدخل أماً أخرى إلى بيته... وقد وفى بوعده... وبقي هو يخدم الطفلتين إلى أن كبرتا. وعندما صار هو بحاجة إلى من يخدمه تزوجتا وغادرتا البلاد والعباد.

وعدت أنا إليه مع زوجتي للعناية به بعد أن صرنا نحن بحاجة إلى من يعتني بنا أيضاً.

عندما كان في أبي رمانة في مطالع السبعينيات - في ملحق - بالأجرة. كان محمد يكتب ويسهر وينفق. كان يعمل في مجلة الشرطة. حملت سنية وكانت في شهرها التاسع عندما حضر أخوه الأصغر من ثكنته أثناء تأديته خدمة العلم، ليقضي يوم عطلة عند أخيه ويستحم ويغسل ثيابه.

ساء سنية الموقف وهي موهنة بحملها، وأعربت عن استيائها، وعلم محمد بهذا الاستياء أو لاحظه أو شاهده فاستاء هو منها وقاوم رغبتها في مغادرة شقيقه البيت، واستمرت في رفضها إلى أن حدث عراك بينها وبين محمد بينما كان شقيقه جالساً مرتبكاً مندهشاً يتفرج على معركة غير متكافئة...

لم تصمد سنية طويلاً فدخلت الحمام، وأغلقت الباب خلفها، ووضعت ظهرها على الباب، وقاومت فتح الباب، وانتهت المقاومة... وانتهى الأمر بموت الجنين في بطن أمه... بدلاً من أن يخرج بعد أيام إلى الدنيا.

وكانت سنية تأمل أن يخرج الطفل حاملاً شموعاً تضيء حياتها المظلمة وحياة زوجها المظلمة أيضاً.

وكان فقدان الجنين خلفية لكوارث نفسية عصفت بسنية وبمحمد أيضاً، هذا الحرمان من الصبي وعدم توفيقها في إنجاب صبي غيره بعد ذلك جعلهما يلوبان على تعويضه.

وقد حزنت الأسرة كلها، ودفعت الحادثة إلى أن يجعل محمد نساء أبي صالح في "ضيعة تشرين" الأربع باسم "أم أحمد" حيث كان من المقرر أن يكون "؟أحمد" هو اسم الصبي.

وقد أجهشت أمه في البكاء عندما شاهدت المسرحية، وقد استمرت في البكاء على حرمان محمد من صبي إلى آخر عمرها.

وقد أثرت الحادثة على حياة محمد وعلى حياة سنية وألقت بظلال سوداء على علاقة سنية بزوجها وبأهل زوجها.

والسنوات التي تلت الحادثة كان محمد - خلالها - يكابر ولا يظهر الحزن - ولكنه كان يختزنه، بينما كانت سنية تروي مفردات الحادثة كلما سنحت الفرصة وتعبر عن مرارة لا حد لها.

كانت سنية تعتبر الخيبة جزءاً من حياتها، ولم تستطع التلاؤم مع العالم. وكانت حذرة وشكاكة، وتشعر بأن العالم من حولها معاد لها.

إلا أن عنايتها الفائقة بالطفلتين اللتين أنجبتهما بعد ذلك كانت مثيرة للإعجاب بها، واستطاعت رغم تشظي قلبها أن تعمل على جعل حياة الطفلتين جيدة ونجحت في ذلك... وأمسكت يدها على راتبها من مؤسسة التبغ، ووضعته لصالح تسجيلها منزلاً في مشروع دمر وكان باكورة ونهاية ادخارها وحفظها على نفقاتها.

وماتت قبل أن ترى البيت ناجزاً ولكنها سجلته باسم الاثنتين قبل أن تموت.

وعندما كانت تهب عواصف بينها وبين زوجها كانت تضم ابنتيها وتهرب بهما من مكان إلى مكان.

وفي أوج ذعرها على مصير طفلتيها أصيبت بالمرض العضال الذي لم يتغلب عليه اهتمام أولي الأمر بها وإرسالها لفرنسا للعلاج ولا اهتمام زوجها المدهش بها ولا اهتمام أقاربها ولا اهتمام من يعرفها.

وكان دريد يهتم كثيراً.

وجابه المرض هذه العناية التي لم تتوافر لأحد، جابه هذه العناية باستخفاف وأوغل في تدميرها. كانت خالدة وسنية قد فقدتا أمهما منذ طفولتهما بنفس المرض، وقد أثر ذلك الفقدان السحيق ولكنه بقي ماثلاً - أثر تأثيراً مختلفاً على كل منهما.

فقد شقت خالدة طريقها بإقدام مذهل، وتقدمت في تحصيل المعارف والتفوق الأكاديمي والأدبي في شتى المجاهل يداً بيد مع أدونيس، وأحياناً ظهراً إلى ظهر.

بينما انزوت سنية في ترميم خوفها وذعرها من محمد ومن خالتها ومن الناس ومن القدر الذي كانت تعتبره يتربص بها. وكانت تجابه هذا المعسكر المعادي هذا المعسكر العالي والعريض والقدير كانت تجابه هذا بحراك عصفور ضعيف إلى أن يطول الزمن بها قليلاً وتكبر الطفلتان وتحصّن نفسها من طوفان العالم القادم باتجاهها.

وقد انتهى بها التجوال المضني إلى غرفة زجاجية في باريس، وابنتاها ترمقانها من خلف الزجاج، ثم إلى قبرها قرب السيدة زينب كانت قد اشترته قبل سنوات من موتها...

عندما كانت مسجاة في دار الشفاء كنت أجلس مع محمد ونجاح العطار وكان محمد بلياقة مدهشة يتحدث بأعصاب متقنة وبكلمات متقنة لا حد لإعجازها.

وبين القبر والسيارة حملنا النعش أنا وهو وقريب لنا... وعندما وضعوها وأهالوا عليها التراب جلس القرفصاء وأهال ذرات من التراب... ونهض دون أن ينبس ببنت شفة.

وفي البيت عندما وقفنا لأخذ العزاء كان متبرماً من ذلك... ولكن أعداد المعزين ونوعياتهم كانت تدفعه للوقوف لأخذ العزاء بجانبي وأحياناً يجلس مع بعض المعزين. وأحياناً أنا أطلب منه أن يجلس مع بعضهم...

مرة طلبت منه أن يجلس مع اثنين كانا قد حضرا سوية... فأجابني بحدة...:

إن مثل هذين الشخصين... لا أذهب للتعزية لأجلهما ولو كانا هما الميتين.

ولكني وجدته يجلس مع عصام المحايري مرتاحاً بعد حين.

وبعد أيام العزاء حضرت خالدة وهي تلبس الأسود الفاحم... وتحدثت مع الطفلتين بود ورحمة... ثم حضرت ابنتها وواست الطفلتين... مواساة راقية ورحيمة وحضرت مها وأليسار وأسعد فضة... وكانوا نسقاً ثانياً بالنسبة للطفلتين.

مرت الأيام بعد رحيل سنية وكبرت الطفلتان وعاد محمد إلى الكتابة وتعاظمت شهرته وطافت الآفاق وصار مريدوه يزورونه ولو من الأماكن البعيدة ويتصلون به وينجز لقاءات صحفية وإذاعية وتلفزيونية ويسخر من الشهرة ويركز على طفولته وعلى مدفأة الحزب الذي انتمى إليه بسببها... ولم أكن أصدق هذا الزعم. وكان يركز في مقابلاته على عدم تصديقه أو عدم اقتناعه بالمسارات الإعلامية والأدبية للناس، ويشكك بصدقية أي طرح سياسي أو أدبي أو اجتماعي. ويعتبر أن التكالب على نهش المكاسب هو سمة العصر.

واستمر التوافق عليه والكتابة عنه إلى أن أصبح بيته مزاراً وهو لا يصدق ذلك فلا يصدق كيف صار ذلك.

ويُدعى إلى بلدان عديدة والى مؤتمرات عديدة وأرافقه إلى المطار وأعود انتظره عند العودة... ولا أجد عند عودته قطعة سكر يقدمها لي.

صحيح أنني كنت أشعر بالأسى، ولكن كنت أشعر أيضاً أن وضعه الصحي والنفسي والأدبي جيد... وأنه لا يعير أهمية للشكليات ولا لغير الشكليات.

عندما عرف أني لم أركب طائرة أو باخرة في حياتي... ولا يوجد أي ختم على جواز سفري... صار يضحك ويقول لي إنه سيدعوني لمرافقته ذات دعوة.

وعندما يسمع صوت المذيعة في المطار يمضي، وكأنه يسير في نومه، وهو يلوح لي بعكازه.

ويعود بعد أيام من كل رحلة مشتاقاً لأريكته والى استرخائه متأففاً من طقوس التكريم ويتكلم باختصار.

كان لا يصدق وسائل الإعلام، ولا يصدق ما يطرح في وسائل الإعلام.

وفي كل مقابلة وفي كل مقالة وفي كل خطاب أو تقرير أو برنامج عمل يرى أي شيء ليس أكثر من مشهد مسرحي.

كان يشغله فقدان إيصال الكهرباء أو الماء وفردة جورب أو نفاد اسطوانة الغاز أو قرب نفاد التبغ أكثر مما تشغله هتافات محمود درويش في منافيه الأنيقة أو ما يقال عن صمود ناظم حكمت الأسطوري أو تقشف ستالين في غذائه وكسائه.

وعندما يتوغل في الشراب كان يهزأ بالخطابات السياسية ويعتبر أن سلخ ما سلخ من الوطن الكبير ليس إلا مقدمة لسلخ البشر. وأن النواح قادم...

وأن ما أخذ بالقوة لن يسترد. وأن ما أخذ من الناس لن يسترد وأننا ما زلنا على مشارف العرس... وفي بداية الرقص.... وأنه هو آخر كلاب الأثر.

وعد سنية قبل أن تموت بألا يجلب للطفلتين أماً ثانية... وكانت الأم الثانية الهاجس المرعب الذي كان يشد وثاق سنية منذ زواجها... كانت تعتقد أنها ستموت بعمر أمها وبمرض أمها... وأن الأم الثانية التي أدخلها والدها إلى البيت دمرت شرايين خالدة وسنية... ووفى

محمد بما وعد... منها التلذذ بالمعاناة والتضحية ومنها استعمال النخوة في موضع دقيق... ومنها أنه لا يحب أن تدخل امرأة مقيمة بيته.

رعى الطفلتين كأب وكأم، وأغدق عليهما الرعاية والعناية والبذل. إلى أن شبتا وكبرتا ونجحتا في دراستهما وفي حياتهما وفي زواجهما ثم في ارثهما.

كنا نحضر إلى دمشق كل إجازة أو عطلة عيد ونبقى عندهم أياماً ونعتني بالطفلتين وكانت سعادتهما بنا لا توصف. ولكنهما كبرتا على شعور بالحذر منا ومن الآخرين وكانتا تعتبران كل الناس من الآخرين.

وكانتا تعتقدان أن لا أحد من الكون يمكن أن يعوضهما عن فقدان أمهما وأن من لا يمتلك أماً لا يمتلك شيئاً.

وكان يسعد محمداً سرور الطفلتين بنا ويقول إن شام وسلافة تشكلان بوصلة بالنسبة له. وأن من تحبانه وترتاحان لوجوده وترحبان به وتأسفان لمغادرته يعتبر إنساناً صادقاً ومناسباً ليدخل بيته وأن شخصاً آخر أياً كان... وأينما كان في قربه أو قرابته أو منزلته أو ثروته ولا تميلان إليه أو تأنسان له أو تأسيان لمفارقته فهو ليس بحاجة لمشاهدته أيضاً.

وبسبب القيمة الأدبية والاجتماعية التي حصل عليها بالإضافة إلى مناخ البذخ الذي أسبغه على البيت بالإضافة إلى ما كان يتدفق إلى بيتهم من كل مكان فإن شام وسلافة نالتا عناية من جميع أقارب أمهما وأبيهما ومن جميع معارف وأصدقاء الأب والأم.

وكانت خالدة تحضر من لبنان أو فرنسا لمشاهدتهما وإغداق الهدايا والرعاية والعطف والتعاطف إلى أن كبرتا وحتى بعد أن كبرتا.

عرضت عليه أخته مرة أن يتزوج... لأن الزوجة ترعى شؤون البيت وتعنى بنظافته وترتيبه... وتوفر جواً أفضل للطفلتين في الدراسة وفي المعيشة... وتوفر خدمة له لا يستطيع إنسان آخر أن يوفرها له غير الزوجة.

فاستنكر ذلك وصرخ في وجهها... وقال: إنه أخطأ مرة ولن يكرر الخطأ...

وإنه لا يريد إدخال عدوة لابنتيه إلى بيته. ثم قال بعد أن تضاءل هياجه إذا كنت لا أستطيع الصعود إلى الباص فكيف أتزوج؟...

في مطلع التسعينات أصيب بمرض في عموده الفقري... وعولج، وقعد في البيت وزاد وزنه، وأدمن كحولاً وتبغاً. ونقلناه إلى مستشفى تشرين وحظي بعناية فائقة. وخرج معافى...

وبعد فترة عاد إلى الكحول والتمادي في التدخين إلى أن قعد في البيت مرة أخرى لا يستطيع المشي إلى أبي شفيق أو حتى إلى فندق الشام. وأعيد إلى مستشفى تشرين وقال لي الدكتور محمود زغيبي إن هذا ثروة قومية يجب المحافظة عليها وعدم التفريط بها.

وقدم لنا غرفة مشمسة أقمنا فيها هو وأنا. وقد كنت لتوي قد أحلت على التقاعد ولا ارتباط عندي.

جلسنا في الغرفة كأننا في غرفة العمارة منذ عشرين سنة...

وصرت أقص عليه القصص القديمة عن الطفولة... وعن اللعب في الحارة والمشاجرات وكسب الجوز في لعب الدحل. وأكل الخبز الحاف. ويطلب مني إعادة سرد بعض القصص التي نسيها.

وصار هو يسرد عليّ قصص الطفولة التي لم أكن اعلمها... وكان يتحدث لبضع الوقت بانتظار مواعيد حضور الوجبات.

كان يسمع صوت العربة التي تنقل الطعام من بعيد. ويعرف في أي مكان أصبحت. ويأكل بسرعة وبشهية... وكانوا يخصصون لنا طعاماً كثيراً وكان الأقارب والأصدقاء يأتون بطعام كثير... وكان لا يذكر الويسكي ويكتفي بالتدخين.

يزوره أطباء المستشفى ويسعدون بروايته ويزوره أقارب ومحبون وكان كلما ذهب شخص بعد زيارته يقصّ عليّ تاريخ هذا الشخص إذا كنت لا اعرفه.

توالت الأيام في المستشفى وتحسن وضعه النفسي والبدني تماماً وأوصاني به محمود زغيبي وكان سعيداً بتحسن حاله.

خرجنا من المستشفى وعدنا إلى البيت. وصار يطالب بالطعام... ويطالب بتلك الأنواع التي كنا نأكل منها أثناء الطفولة. والتي انقرضت.

وصار يخاطب شام التي صارت في الولايات المتحدة مع زوجها الذي تعرف عليها وتزوجها خلال أسبوع ودون علمي... إذ يومها كنت أتابع معاملة التقاعد.

وصارت شام تطالب بإنجاز أوراق خاصة بالجامعة وبالطب وبالاختصاص وبتصديق المصدقات بعد ترجمتها. ووضع عليّ محمد هذا

العبء الثقيل. وأنجزته محبة به وخدمة له... لأنه حاول أن يكلف أقارب وأصدقاء ومحامين دون جدوى... فأصر عليّ أن أقوم بحمل ذلك العبء الثقيل.

كنت أذهب يومياً إلى التعليم العالي وكلية الطب وأذهب إلى السوق... وأقف ساعات في المطبخ لصنع الطعام... وكان محمد يتبعني ويجلس في المطبخ ويقص لي... حكاية ما... كنت أجده سعيداً بي وبسلافة...

قال لي إنه ذهب مرة مع رفيق له من سلمية إلى حماه مشياً على الأقدام. وعندما رغبا في العودة مكثا في المرآب إلى أن اختبأا في مؤخرة سيارة ذاهبة لسلمية. وبعد إقلاعها شما رائحة لحم مشوي بقربهما. فبحثا في العتمة وعثرا على اللحم المشوي وأكلا حتى شبعا... وعند اقتراب السيارة من سلمية ألقيا بنفسيهما، وركضا بين الحقول، ولم يعلم بأمرهما احد.

وقال لي أنه عندما كان في لبنان صار يتردد إلى دكان صديق له يعمل حلاقاً، ولكنه لا يجيد المهنة كما يجب، ويجرح ذقون الزبائن. فكتب له على باب الدكان: "إن الدماء التي تجري في عروقنا ليست ملك لنا".

ويسألني أحياناً عما أعرفه عن أكرم الحوراني وعفيف البزري... وعن فرج الله الحلو وقال لي: انه عندما كان في السجن.. مرة من المرات وكان الفصل شتاء، وشتاء المزة قارس وكان معه في الغرفة شخص شيوعي معروف ومعه بطانيتان وطلب منه بطانية، ولكن هذا الشخص لم يعطه.

ويتحدث عن يوسف الخال أيام لبنان، وكان يذهب إلى بيته، ولم يكن يهمه ما يدور عنده من أحاديث وتنظيرات وإنما يذهب إلى المطبخ ويأكل ما يجده من طعام.

ثم يجلس مع المتحادثين ثم يذهب إلى غرفة أخرى وينام... وهو عادة بعد أن يأكل يشعر بالنعاس وينام..

وكان إذا استأجر غرفة وصار آخر الشهر وليس معه الأجرة يترك أغراض نومه في الغرفة، ولا يعود إليها.

ويبحث عن أحد المعجبين بكتاباته لينام عنده...

وحكى لي كيف تعرف على أدونيس وزوجته وعلى سنية، وكيف أحبها، وأحبته إلى أن رافقته لآخر أيامها.

وعندما كنت ألفت نظره إلى ضرورة وضع رماد السكائر وأعقابها في الصحن المعد لذلك، يذكرني كيف كان الياس مسوح يترك الرماد يتساقط على ثيابه ثم بعد ذلك يقف ويتساقط الرماد على الأرض دون عناء.

وكيف كان رامبو وبودلير يدعان القمل يسرح ويمرح على جسديهما... وفي ثنايا ثيابهما.

وعندما أطلب منه أن يساعدني لأغسل له شعره أو جسمه أو يخلع ثيابه ويبدلها. كان يخترع لي قصصاً مفاجئة ليتخلص من العبء الذي أعرضه عليه.

ولكني عند الضرورة كنت ألح عليه... حتى يستجيب ويستحم بين يدي كطفل وأجففه، وأضع عليه ثيابه... وأسرح له شعره ثم أقدم له الشاي أو المتة... وبعض الطعام القادم من سلمية... فيشعر بالغبطة ثم يدخن، وينام.

وعندما يصحو بعد قليل يطالب بأدويته وهي أمامه على طاولة سوداء فسيحة عليها كل الأدوية التي يحتاج إليها. منها أدوية للضغط ومنها للقلب ومنها مسكنة ومنها مساحيق يذوبها ويشربها ومنها مهدئة ومنها للحلق ومنها للقصبات ومنها للكبد ومنها منوّمة.

وبجانب الطاولة زجاجة الويسكي الفاخرة أو زجاجة الجن وأمام يده علبة التبغ وبجانبها صحن الرماد الكبير. وصحن الفاكهة الذي لا يفرغ وصحن طعام.

وإن حضر شخص لزيارته يبتهج أو يغتم حسب الزائر بالنسبة له فإما أن يعطيه كأساً أو يطلب مني أن أصنع له قهوة أو يدير له ظهره، وينام. ولا يلبث الزائر أن يغادر.

وكثير من الضيوف يحضرون له طعاماً شهياً فيتمنى أن يغادر الضيف سريعاً ليتناول من الطعام فور خروج الضيف...

وأحياناً يمكث الضيف طويلاً حتى يمل منه وأحياناً لا يمل. وإذا كان الضيف ممن يحبهم يتحدث عن ذكرياته معه وعن قصص عابرة أو غابرة. وعندما يخرج الضيف يروي لي ما خفي من حياة هذا الضيف وعن كفاحه أو عن نفاقه أو عن بؤس كتاباته أو عن تقلباته... وكأنه يزدهي بنفسه كيف أنه سلك طريقاً لم يستطع أحد أن يمشي معه أو يلحق به أو يكون على مرمى النظر خلفه وكأن طريقه هذا لم يسلكه أحد غيره.

وكان في كل ما يتحدث لا يذم بمرارة سوى البخيل، ويعتبر البخل أقبح ما علق بالبشر... ويسوق مثالاً على ذلك كيف أن زائراً قادماً من باريس أحضر لشام زجاجة عطر رخيصة، وعندما هم بالمغادرة قال لشام إن كانت بحاجة إلى الكيس الموضوعة فيه الزجاجة... وإلا يمكن أن يأخذه معه.

ويذكر عن بعض زواره كيف يدخلون بيته، وليس معهم هدية أو طعام مع أنهم يملكون المال الكثير... ويقارن بينهم وبين بعض زواره الفقراء الذين يجلبون له اللحم المشوي أو الدجاج المشوي مع أنهم لا يذوقونه في بيوتهم.

وأحياناً يقدم كتاباً من مؤلفاته لزائره عفو الخاطر... ويكتب إهداءات ظريفة وطريفة... وأحيانا يعتذر عندما يُطلب منه كتاب.

وعندما أُعد طعاماً لسلافة، يبتهج وينتقل إلى المطبخ ليشاهدها وهي تأكل، ويلقي تعليقات على طريقتها في تناول الطعام، ويبدي إعجابه بشهيتها، ويسألها عما جرى معها أثناء غيابها عن البيت لحضور دورة لغة أو كمبيوتر أو زيارة أو دوام عمل.

وإذا نقلت له خبراً أو فلت من لسانها خبر عن مسلك سلبي من أحد تجاهها. يزمجر ويطلب مقاطعة الشخص وإعطاءه درساً في الشجاعة والمروءة التي لم تكن سلافة تفتقدها.

وعندما ترافقني سلافة إلى منزلنا يبتهج كثيراً وعندما تعود يسألها عن معاملتنا لها.. وعن بيتنا ومواصفاته، ولا تخفي غبطتها بما يثير الرضى في أعماقه.

وفي الليل يرن جرس الهاتف، فيستيقظ من أعماق كوابيسه مذعوراً، ويمسك بسماعة الهاتف، ويزأر... ولكن الجهة الأخرى لا تتكلم. فيصرخ، ويزمجر، ويشتم بأفحش الكلمات.. ثم يجلس، ويدخن... وأحضر لعنده من الغرفة المجاورة فيقول لي: إن هذا الشخص سيوردني حتفي... ولم يكن يوجد كاشف في تلك الأيام...

وأحياناً ما إن يعود ليخلد إلى نوم قصير حتى يرن جرس الهاتف من جديد وتعود ردة الفعل بأفظع من الردة السابقة.

هذا الإزعاج المتكرر دفعه أن يطلب من جهات حكومية وأمنية أن يراقبوا له خط هاتفه وخط الجهة الطالبة. وقد عرف بعد ذلك طريقة إلى الخلاص من ذلك الإزعاج البغيض.

وأحياناً ينزعج من عدم الاتصال به من قبل أشخاص يعتبر أن من واجبهم الاتصال به فيقول لي: تأمل كيف أن دريد سمع بدخولي المستشفى، وسمع بحالتي، وسمع بخروجي، وسمع بانزوائي في البيت، ولا يحضر ولا حتى يتصل بالهاتف للسؤال عني... ولا يرسل أحداً للسؤال عني ويعني بذلك أقاربه وبعض أصدقائه...

ولكن المسؤولين في الدولة والكتاب والصحفيين ومحبي كتاباته كانوا يزورونه ويتصلون به دون أن يفتقدهم... أو يحسب حساب زياراتهم أو اتصالاتهم. ولكنه كان يرتاح لزياراتهم أو اتصالاتهم...

وأفهم من كل هذا انه كان يعتبر أن مكوثه الاضطراري في البيت يعتبر مناسبة للآخرين لتقديم مشاهد ولو استعراضية للتعبير عن التقدير له والإسهام في تبجيل قيمته الأدبية.

فبدلاً من الحذر القديم من كل زائر والخوف القديم من كل طرق على الباب.

ما إن أرى ورقة
أو قبعة من فرجة باب
حتى تصطك عظامي
ويهرب الدم من عروقي
وكأن مفرزة من شرطة السلالات
تلاحقه من شريان إلى شريان...

أصبح ينتظر طرق الباب وينتظر وقع الأقدام في المدخل...

يتصل به جهاد سعد... وبعد قليل تتدفق مجموعة خارج السرب" التي تعب في كتابتها وتشظى في تسويقها. وخاصة - حسب ما أفهم - بعد أن تغاضى دريد عن الإمساك بها... تشفياً من محمد الذي نال من دريد إعلامياً وفي الجلسات... وحسب ظروف تلك الأيام كان على دريد أن يتجاوز الأسى ويندفع إلى بيت محمد فيواسيه ويضمد جراح الإساءات التي ربما لم تكن حسب ما تصورها الناس... ربما تكون غير واقعية تماماً... وربما في جوانب منها مدسوسة...

كان على دريد أن يندفع... شغوفاً إلى بيت محمد، ويعيد وصل ما انقطع... وهي مهمة لم تكن صعبة... من اجل خارج السرب... التي لاقت بدون دريد تشرداً وتشظياً ومعاناة...

أقول عندما تتدفق أسرة خارج السرب وجهاد سعد على رأسهم... جهاد الودود والدمث والجميل... كان يختلط الحابل بالنابل. وكل واحد يقبل محمداً بطريقة وكان كل واحد يتحدث بجمل مختلفة. وكل واحد يعلق وكل واحد يتحدث عن دوره وعبد الإله فرهود يصور الأمور ناجزة... وتحتاج إلى ضغط جهاز التحكم ليبدأ العرض بينما العديد من الأمور ما زالت عالقة في الألبسة والديكور، وصباح الجزائري ابتعدت عن المشاركة لشكها بفرقة العمل وبسويات أفرادها.

ويزمجر محمد ويقول لها على الهاتف: كيف كنت يوم ضيعة تشرين؟ ألم تكوني أقل سوية للعمل كجولييت؟... ويهددها بأنه لن تكون لها علاقة ما ولا بأي شكل من الأشكال معه أو مع مسرحياته المقبلة ويغلق الهاتف ويقول:

بأن فلاناً هو وراء إحجام صباح عن المشاركة في خارج السرب بعد أن انتظرها حتى ولدت واعتنت بابنتها أشهراً.

وأعود إلى الحديث عن جماعة خارج السرب للتأكيد على أن أفرادها جميعاً أحبوا المسرحية وأحبوا محمداً فعلاً وتناوبوا على تقبيله وهو مستلق. وأغدقوا عليه التبغ والويسكي والهدايا والشنكليش.

واقترح جهاد من أجل وضع محمد في صورة عرض المسرحية ومن أجل تدقيق وضبط شباك التذاكر أن أكون أنا من يمثله في مراقبة الأعمال الإدارية والمالية والعلاقات العامة في المسرحية وضبط منافذ الخلل ومعالجتها... وتلقى محمد الاقتراح بسعادة...

وما إن بدأت العروض الأولى... ووصلت أفكار محمد وجمله وصوره إلى الجمهور حتى تحول مسرح اتحاد العمال إلى عرس يعج بعشاق كتابات محمد وبالمسؤولين وبعلية القوم... وخرج من عرين انزوائه وأطل على الجمهور محمولاً بأيدي جهاد سعد وعبد الإله فرهود وآخرين... ولوّح للناس بعكازه... وخرج من المسرحية ليتدفق الخلق باتجاهه مسلمين ومقبلين ومبتهجين... وأقيمت له حفلة عشاء سهرنا فيها معاً، وكان يحاط بأجمل محبيه وأروعهم...

وعند العودة إلى البيت طلب مني ألا أتدخل في هذه المرحلة في قيود المسرحية أو سجلاتها أو قسائمها أو في أي أمر من الأمور المالية حتى لا أثير حساسية أحد وحتى تبقى المسرحية تتوهج يوماً بعد يوم.

وقد انطلقت المسرحية، وتدفق الحضور المدهش... من مختلف شرائح المجتمع... سواء منهم من كان خارج السرب - وفق ما تعنيه المسرحية - أو من كان داخل السرب وقد نجحت المسرحية بنصها المذهل وبمعاناة

جهاد سعد ورفاقه، ولكنها لم توفر نقوداً لمحمد الذي كان ينتظر البذخ والترف على يدها.

وكان يعدني بأنه سيساعدني من دخل المسرحية في شراء بيت قريب منه في المزرعة...

ولكن النتيجة أنني كنت سعيداً بعرض المسرحية دون النظر في عائداتها... ودون التدخل في مشاكل إيراداتها التي تبخرت في شكل تكاليف وانفاقات لا حصر لها..

ولكن مع توالي العروض وعدم تقديم أي مبلغ لمحمد من ثمار شباك التذاكر أخذ يغضب ويزمجر ويطلب من جهاد سعد حصته من إيرادات المسرحية... ولم يقتنع بالردود وصار يهتف: لقد أكلوا المسرحية... وعاد يشرب كثيراً ويقول إن سبب عودته إلى الإدمان يعود إلى جماعة خارج السرب.

وبعد أن يئس التفت إلى أمور أخرى... أدبية ومنها عرض نص لفيلم سماه "المسافر" على مخرجين... وقد اختار محمد ملص أخيراً لهذا الفيلم... واجتمع به مراراً وبعد نقاشات تناولت الجوانب الشكلية والفنية للنص... خرج محمد ملص ولم يعد.

وتمر فترة ليس فيها اتصالات تتعلق بالعمل المسرحي أو الأدبي... ولكن فيها فتح زجاجات وشرباً وإدماناً وتدخيناً... وانشغال بال على سلافة عندما تذهب إلى دورة لغة أو زيارة صديقة أو إلى عمل في مكتب الحياة، سعى لها فيه من أجل أن تنشغل وينشغل هو بها...

وما إن يقترب موعد عودتها المتوقع وحسب ما تقدره هي له حتى ينهض عن أريكته ويبدأ يتمشى باتجاه باب الشقة وينظر، ويتساءل: ألم

يحن الوقت لعودة سلافة، وأجيب بأن الوقت لم يحن بعد. ثم يعود يمشي ذهاباً وإياباً.

ثم يتساءل: لقد حان وقت عودتها. فأقول له: إن الوقت ليس محدداً ويمكن أن تتأخر قليلاً وهذا ليس مهماً. فيعود يتمشى ويدخن...

وما إن تحضر بسرعة حتى يصرخ في وجهها متسائلاً عن سبب تأخرها، فتجيبه بهدوء بأنها لم تتأخر... وان ذهابها وعودتها كانا في مواعيد عادية... فتنشرح أساريره ويطلب منها تناول الطعام الذي أعده لها عمها...

ثم بعد ذلك يتجه للتساؤل عن سبب تأخر شام في الاتصال به من الولايات المتحدة ثم يطلب من سلافة تقريراً عما حدث معها خلال وجودها خارج البيت.

ويعلق على كل ملاحظة أو موقف حدث لها أو معها.

ثم يأتيه صوت شام من أقاصي الأرض، فيحادثها بغبطة واهتمام، ويسألها عن صحتها وعن طفلتها... وعن الأوراق الجامعية التي أُرسلت لها وعن زوجها وعن عملها ثم يوصيها بصحتها... ويغلق الهاتف، ويجلس منتشياً، ويعود ليكمل كأسه وتدخينه ثم يستلقي مرتاحاً مغتبطاً. ثم يغفو لمدة تمتد ساعة أو أكثر، لينهض بعدها جائعاً، ليأكل بسرعة وليعود إلى التدخين...

ثم يستلقي، ويسمع صوت أسمهان وفريد الأطرش في ديالوج عمره أكثر من ستين عاماً.

فأذكره بحاجة جسمه إلى حمام ساخن ثم إلى حلاقة ذقنه وقد تمادى نمو الشعر عليها.

ويحاول التملص من أمرين ثقيلين... رغم أني أنا سوف أقوم بهذين العملين ولكنه سوف يتحمل المعاناة أثناء الحمام أو أثناء حلاقة الذقن... معاناة التحمل...

ولكني أصر عليه، وألح عليه، فيمشي متثاقلاً وأنا أسنده... وأضعه على كرسي عال في الحمام، وأقوم بغسله كطفل صغير... ثم بعد ذلك يشعر بنشاط وبسعادة بعد تجفيف جسمه وتبديل ملابسه. ليصبح شاباً. وخاصة بعد الحلاقة وتسريح الشعر.

ثم يتذكر شخصاً ما يتصل به ويدعوه لزيارته... ثم تحضر صحفيات أو شاعرات أو ممثلات... أو معجبات وممتدحن لباقته ووجهه وهندامه...

ينشرح صدره من المديح ومن الزيارات القصيرة.. وعندما تطول الزيارة يمل، ويستلقي، ويغمض عينيه إيذاناً بانتهاء المهلة المزاجية لتقبل زمن الزيارات.

مرت خارج السرب برحلة مضنية تجول بين المخرجين والمنتجين والممثلين والفنيين... واقترح أسعد فضة بأن يقوم بإخراجها وإنتاجها مقابل مبلغ يتفق عليه... ويريحه من مشاكل الإنتاج التي لا تنتهي...

ويقول محمد أنه لو سمع من أسعد لتخلص من وجع الرأس... واستفاد مادياً...

وزاره الكثيرون ممن يهتمون بالمسرح... وخاصة من اطلع على خارج السرب وأحبها وعشقها... ولكن مرور الزمن كان مضنياً... بعد إعطائها لجهاد سعد ورفاقه... وكان وقت حفظ الأدوار وتأمين المسرح والديكور والملابس والنقد طويلاً.

وكان لوزارة الثقافة دور إيجابي، وكان لعبد الإله فرهود دور عملياتي بارز ضاغط في إبصار المسرحية النور في مسرح اتحاد العمال.

وكان محمد شغوفاً، وإن ظهر واهناً، عندما حُمل من السيارة أمام الاتحاد، حمله الكثيرون على أكفهم... إلى فوق ومعه عكازه وقبعته ووهنه إلى الصف الأول، وحمله الكثيرون إلى الخشبة مع عصاه وقبعته وابتسامته الواهنة، وحيا الجمهور الحاشد بعصاه...

في الاستراحة التي توسطت العرض كنت أجلس معه وأراه ممتناً من شيء ما أو أمر ما..

وخلال السهرة التي تلت العرض مباشرة كان منشرحاً ومختلفاً عن صورة وجهه وهو داخل المسرح.

كان يحمل كأسه ويقف باتجاهي لنشرب نخبه مع مجموعة كبيرة من عشاق الفن والمسرح وعاد إلى البيت سعيداً ونام سعيداً... وعند الصباح كتب بعض الملاحظات عن الإخراج وعن التمثيل وأوصل الملاحظات إلى جهاد سعد وعبد الإله فرهود وأوصاني بألا أتحدث معهما بأية أمور مالية. وقال إن المهم بالنسبة له هو أن تقال كلمات المسرحية وأن تصل إلى الناس.

وتوالت العروض، ويحضر كل مساء العديد من الشخصيات الأدبية والفنية والمسرحية والعديد من المسؤولين في الدولة.

وانتهت العروض إلى انعدام أي مردود مالي وإلى قطيعة رهيبة بين محمد وطاقم المسرحية، وعاد إلى حياته الرتيبة. ثم بدأ يهتم بصحته وبتعلميات الأطباء التي كنت أدفعه إلى تنفيذها، وأهمها الإقلال من التدخين والإقلال من الكحول.

وقد استجاب وصار يمشي داخل البيت عدة ساعات يومياً إلى أن قويت عضلاته، وقويت أعصابه، وصار يذهب إلى فندق الشام يومياً، وصار محبوه يسلمون عليه بحنان وقد أعلموه أن طاولته بقيت خالية طوال غيابه ولم يكن يسمح باستعمالها.

وعاد يكتب وهو في مقهى الفندق، ويعود إلى البيت جائعاً ليأكل، وينام، وتحسنت حالته إلى حد جيد.

بعدما صار يتمكن من الذهاب وحده مشياً على قدميه إلى مقهى فندق الشام... ولم يبق في البيت أحد، وذهبت سلافة مع زوجها إلى لندن، صرت أتردد إلى حيث يجلس في الفندق، وعاد يكتب قليلاً، ولم أكن أعرف أو أقرأ ماذا كان يكتب.

ويحضر كثيرون للسلام عليه، ولكنه كان يتضايق إذا جلسوا قربه، ويتضايق من طول مكوثهم قربه، ويتضايق من ضيافته لهم.

وصرت أشعر انه بدأ يتضايق من وجودي معه سواء في المقهى أو في البيت فآثرت التقليل من عدد الزيارات، والتقليل من مدة الزيارة. وخاصة بعد أن صار يتردد إلى بيته ابن شقيقته.... وكثرت اتصالات وزيارات أقاربه له...

وقد اعتنى به ابن شقيقته وهو طبيب عناية فائقة وكان يحبه حباً جماً.

ولم يكن يخطر ببالي.... احتمال انتكاسة في حالته الصحية سواء البدنية أو النفسية. وقد تصورت أنه عاد وأصبح بحالة جيدة جداً.

ولكن غيابي عنه سمح له بالعودة إلى الكحول بإدمان والى التدخين بإدمان والى الإقلال من تناول الطعام.

وكان لا يكترث بنصائح ابن أخته بشكل عام. فتدهورت حالته الصحية من جديد... وتدهورت كتاباته في "وقوف، جلوس، سكوت" الذي لم يشجعني على مشاهدتها بعد أن صارت تعرض كمسرحية في إحدى دور العرض. ولم أشاهدها رغم انه أعطاني بطاقات، ولكنه قال لي وأوصاني بأنه إذا ذهبت للعرض وتقدم أناس للسلام علي... ألا أقول إني أنا أخوه... فتأثرت من هذه التوصية ودهشت وقلت: ... بأني لست بحاجة لقول إنني أخوك طالما من يشاهدني يفكرني أني أنت.

واعتبرت هذا الموقف انتكاسة وجدانية وسأعمل على التعايش معها... وقد تأثرت من ذلك، وثأرت لنفسي بالابتعاد عنه، ولكني ندمت... وكان ندمي بعد فوات الأوان... بعد ما تداعت حالته الصحية

والإبداعية.. ولا يستطيع أحد أن يدعي... إن ذلك ليس بسبب غيابي عنه...

ولكن على صعيد آخر... توالى تكريمه رسمياً وإعلامياً، وحصل على أوسمة وجوائز، وكان توالي التكريم، وتوالي الجوائز... وما رافق ذلك من عطاءات مالية... كان يحرص على إيداعها باسم ابنتيه واحدة في الولايات المتحدة وواحدة في بريطانيا...

وصار يشعر أنه في سباق مع الزمن إلى أن توقف السباق فجأة في الثالث من نيسان ٢٠٠٦. بعد أن أمسك سماعة الهاتف ولكنه لم يرد على طالبه.

سقطت سماعة الهاتف من يده... وسقطت مرحلة من عمر الشعر ومرحلة من عمر المسرح ومرحلة من عمر المقالة السياسية... ومرحلة من عمر الكتابة المدهشة...

وبدأت مرحلة جديدة من الأسف عليه والتفجع لفقدانه مرحلة كان هو أرضها وسماءها وغيمها وصقيعها... وتداعياتها...

وفوجيء القوم بعظمة مكانته التي ما إن سقطت السماعة من يده حتى تلبدت الأجواء... وتعكر الصفو... ولعلع المقت... والغم.

ولكن الجميع تراكضوا لمرافقته إلى المستشفى ثم إلى الشوارع ثم إلى بلدته التي فوجئت بموته، ولكنها فاجأت العالم بمحبتها له... حباً أخذ أبعاداً أسطورية واخذ أشكالاً بدائية وصاخبة.

كان نهر يتدفق من دمشق، وينابيع تتفجر من صحراء سلمية.. وتتسرب إلى مفاور الرمل والى السواقي القاحلة.

كانت البشر تلوب، وتقصف، وتلتف، وتنحنى، وتنكسر، وتشمخ.

وكأن زوبعة ترتسم.. والنهر يتدفق وخطابات التأبين تدوي وتنوس ثم تتدّس ويروي من تناوبوا على الخطابات كتاباته عن سلمية...:

أنا عائد مع دخان القطار
وطني أيها الجرس المعلق في فمي
أيها البدوي المشعث الشعر
هذا القلم الذي يصنع الشعر واللذة...
يجب أن يأكل يا وطني.

بعد أكثر من سبعين عاماً من الجوع والخوف... لا عطايا التكريمات والجوائز، أشبعته... ولا حنو أهل الأمن عليه جعله آمناً...

وكان يهرع إلى إيداع نقوده لاسم ابنتيه خوفاً عليهما من الجوع... وقد تذكر زكريا تامر عندما خاطب قطته وهو يصب لها مرق الفاصولياء على الأرض: لا تجوعي مثلنا يابلهاء.

الكثيرون جداً كتبوا عن شعره وعن مسرحه وعن مقالاته وعن الأرجوحة، وكتب الكثيرون عن مجازفات في الكتابة وعن الجرأة في تناول أي موضوع.. ولكن خصوصيات حياته منذ الطفولة وحتى الموت كانت عصية على التناول. لأنه كان يغلق ذاته بوجه الآخرين بنوع من الحساسية العالية والحذر المتجذر وبنوع من المهنية البالغة الخصوصية.

حاول الكثيرون... أن يكتبوا على منواله وعلى طريقته فما حالف الحظ أحداً. وحاولوا أن يملكوا الجرأة على الخوض في المجاهل التي خاضها... فما حالف الحظ أحداً.

حتى في طريقته في الإنفاق وفي تبديد نقوده، حاولوا كثيراً السير على منواله فلم يوفق أحد...

عندما كنت أقرأ له بعض كتاباته الأولى أو اذكره ببعض الجمل وببعض العبارات الواردة في رسائله القديمة والمرسلة إلي... كان يقول إنه لا يتذكر...

حتى الأيام التي قضيناها معاً وفي غرفة واحدة في مطالع الستينات... هو وسنية يقول إنه لا يتذكرها، ولكنه كان يتذكر أموراً لا أتذكرها أنا.

لقد عبر الحياة مثل نيزك يضيء بوهج ساطع، ولكن أعماقه بقيت ملبدة بالظلام... ظلام أسود ومخيف يختبئ فيه الجوع والخوف... اللذان ظلا يبعثان في داخله الضيق العميق.

الجوع والخوف كانا جناحين لطائر أسطوري يخفقان في ظلام أعماقه وكل ما حصل عليه فيما بعد العشرين من عمره لم يرمم ما جرى تمزيقه وإتلافه في سنوات ما قبل العشرين.

وظل يتغنى بالجوع والخوف، وببصيرة لا حدود لعمقها وعبقريتها استمر يعزف ألحاناً عبقرية في الشعر والمسرح والمقالة والرواية... واستمر يغرف بثقة مذهلة وبعفوية مذهلة من هذا المخزون الهائل من الجوع والخوف.

كانت ألوان الطعام تملأ بيته، ولا يأكل ليبقى متمسكاً بالجوع... الذي يلهمه عند الكتابة. ويشد وثاقه إلى الطفولة والى أعماقه.

وكان الأمن يتدفق، والأمان يتدفق... وبحر السلامة حوله يمتد وتبقى ترعبه أية مكالمة أو أية ورقة رسمية... ولو كانت فاتورة هاتف.

ويبقى يتحدث في قيلولته التي امتدت سنوات عن البطانية التي كان يحتاج إليها في السجن والتي لم تُعط له يومها لتبقى ذكرى

حرمانه منها وذكرى من منعها عنه تجعل أمعاءه تتشنج... كما لو كان ما زال في السجن.

ومع كل مظاهر الدفء الماثلة في غرفته وفي بيته... والبطانيات المكدسة التي لم ينزع غلافها... ينهض في الليل وهو يشعر بالبرد وبالغثيان... بعد أن تكون البطانية التي يغطي نفسه بها قد انزاحت عن جسده لكثرة تقلبه أثناء النوم، ولضيق الفسحة على الأريكة التي ينام عليها... وقد رفض النوم على سرير مريح طوال حياته.

واستمر يبحث عن ذريعة ليقول إنه لم يستطع أن ينام... وعن ذريعة ليقول إنه جائع، وكل الذرائع تقوده إلى التدخين.

وكانت الكوابيس هي محور تأمله بعد أن يستيقظ من كل غفوة... كان ينام في اليوم عشرات المرات، وكان يستيقظ عشرات المرات... وكانت الكوابيس هي الصور الملفوفة على محور والتي تدار بيد مجهولة خلف الزجاجات المكبرة في صندوق عالمه الداخلي.

وإذا كانت الكوابيس تجسيداً للخوف ونفوق حصان والده من الجوع عندما كان في الخامسة... تجسيداً للجوع...

وإذا كان الزحار مرتبطاً بالبطانية التي لم يتمكن من الاحتماء بها من البرد . إذا كانت هذه لا حلول لها... فسيبقى الكحول والتبغ المرهم الذي يرمم قروحه التي تنز والتي استمرت تنز طوال عمره.

منذ أن يبزغ الفجر... ويتسرب ضوء بنفسجي إلى غرفة سلافة حتى تصدر حركة من الأقفاص... ثم تسرع الطيور إلى الحركة والمطاردة ونهل الماء وازدراد الحب ثم إلى الغناء.

ولكنه هو في الغرفة البعيدة عن الطيور يسمع غناءها وتنقلها من مكان إلى مكان داخل الأقفاص... ولا يستطيع الصبر والاحتمال فيطلق صيحاته إلى سلافة بأن تطلق هذه العصافير من النافذة لتذهب إلى الآفاق البعيدة بدلاً من أن تبقى حبيسة. ويقول لها كيف تتصورين أن اقبل بوجود عصافير محبوسة في الأقفاص وأنا لا همَّ لي إلا الكتابة عن الحرية.

فتقول له وهي خائفة منه على نفسها وعلى مصير العصافير: إن هذه العصافير لا أمن لها إلا داخل هذه الأقفاص... وإنها إذا أطلقتها لا تعيش ولا تعرف كيف توفر غذاءها أو ماءها... وإن قطة واحدة تستطيع أن تأكلها كلها.

فيقول لها: إن الحرية أجمل. ولا يهمه ما يحدث لها من مصير في أجواء الحرية.

ثم غافلها ذات يوم وكانت خارج البيت فأطلق العصافير من النافذة وأعطى الأقفاص لصبي كان يعمل في البقالية تحت بيته وعاد إلى الاستلقاء منتصراً لمبادئه... وأدار مسجلته لتغني لعبد الوهاب عن

الحرية. ولليلى مراد وهي تتغنى بجمال الحب لمن يعيش فيه وإلى حوارات فريد الأطرش مع شقيقته.

ثم يغفو وكأنه عائد من مبارزة انتصر فيها ثم يستيقظ بعد قليل، ويذهب لتكسير قطع الثلج، ويلقي بها في كأسين ويعود يحملهما وينادي عليَّ وهو يضحك... ويقول لننتظر ماذا سيكون عليه حال سلافة اليوم!!؟

لكني لم أعلق على إطلاق العصافير، ولم أوافق في نفس اللحظة، ولكني بعد قليل قلت له إن سلافة أهم من العصافير... وإن العصافير لها.. ولو أطلقتها لأكلتها الهرة بعد ثوان...

وإن سلافة مثل هذه العصافير وإنها لو أطلقت سوف تأكلها هرة ما.. وقد أطلقت بعد فترة في فضاء الأسلاك الشائكة.

كما أطلقت شام قبل ذلك.. وانتهى عهده في الانتظار... والتمشي متثاقلاً باتجاه الباب... والنظر من عدسة الباب... والتقاط وتحليل وقع الأقدام...

والعودة إلى الأدوية والكحول والتبغ... إلى أن أمسك بسماعة الهاتف، ولم يرد...

الجوع...
إنه لا يفهم شعراً ولا نثراً
ولا يأخذ بحجة أو بينة
ولا يقدر ظرفاً طارئاً أو مشكلة عائلية
أو مأساة عاطفية
أو مرحلة حساسة أو منعطفاً تاريخياً...
أو مصالح دولية أو توازنات إقليمية...
أو مفاوضات مصيرية...
أو تقاليد مرعية.. أو اعتبارات دينية
أو أحكاماً عرفية أو دروعاً بشرية
أو مقابر جماعية أو نهضة سياحية..
ولا يبالي بشرف أو عدالة..
أو كرامة أو حرية...
بيمين أو يسار أو شمال أو جنوب
لقد أكل كل مراجعي ووثائقي ومستمسكاتي
وجداولي وإحصائياتي الشخصية والرسمية
وخرجت من الحوار معه منبوش الشعر أشعث اللحية... ممزق الثياب
مثل رحالة في عاصفة رملية...

لا أرى أحداً
ولا أحد يراني
وكل دموع الفقراء الفائضة عن حاجاتهم
وكل آلامهم وأحلامهم الهائمة في الطرقات
تصب في دفاتري، كما تصب المجارير في البحر
وعليَّ أن افرزها وأنسقها
حسب الأقدمية والأهمية
وحسب مصدرها وطائفتها
وماضيها وحاضرها
كأي مؤرشف بيروقراطي
في دهاليز الثورة البلشفية...
هذه للدراسة
هذه للحفظ
هذه للتريث
ثم أوقع عليها بقدمي الحافية
وأغط في نوم عميق...
ووجهي مغطى بالدموع والملفات
وصرخت صرخة مدوية ارتجت لها الأرض
كل ما عليها ما عدا "البنوك"
لا نوم لا دهاليز لا دموع بعد الآن
لا شيء غير الثورة...
وجهزت جيشاً جراراً من ورق الخريف

ودرعاً وسيفاً قاطعاً من ريح الشمال...
وخوذة من الدموع الصلبة التي لا يخترقها الرصاص
وكان جواد الثورة بزينته وأجراسه وسرجه الشاغر
يصهل ناخراً مستعجلاً بانتظاري...
ولكن عندما وضعت يدي على ركبتي وحاولت النهوض لامتطائه
أدركتني الشيخوخة

كان يتكىء على أريكته الزرقاء ويمر من قرب رأسه صوت أسمهان وفريد الأطرش في ديالوج قديم، والكأس في يد والسيكارة في يد... وكل حين يقدم لي كأساً...

ويسألني وهو يبتسم عن معلومات أعرفها عن حياة ستالين وموت فرج الله الحلو وعن القرامطة والزنج. وعن سبارتاكوس وغيفارا وعن معركة الجمل ومعركة صفين.

وأقول له: إن صحفياً أمريكياً - بعد الانتصار على النازية - قابل ستالين في مكتبه وشاهده يتناول فطوره المؤلف من بيضة مسلوقة وليمونة. ويرى ما بداخل خزانته فلا يجد سوى بيجاما وشحاطة. وإن ابنة ستالين المعلمة في القرى لم تنقل إلى موسكو منتظرة دورها.

وأقول له: إن ستالين وجد ما يأكله ولكن وزير التموين في عهد لينين أيام الحرب الأهلية مات من الجوع بينما كان الروس البيض يأكلون الكافيار.

وإن فرج الله الحلو كان يُذوّب حين كان تيتو وعبد الناصر يتناولان الطعام على مائدة نهرو في نيودلهي... فيقول لي: وها قد قتلت ابنة نهرو، وقتل ابنها وها هو تيتو قد قطعت ساقاه. وها هو عبد الناصر قد قتل. فأقول له إن هذا لا يمحو هذا... وأقول له إن غيفارا قد ثقب الرصاص ملابسه الداخلية وامتلأت بعدها بالبول. وإن القرامطة قد

أبيدوا، وإن الزنج قد أبيدوا.. وإن سيف الفقراء يكسر وإن سبارتاكوس صار اسمه لفريق رياضي.

وإن الفقر ليس رجلاً حتى يتمكن سيف صارم من قتله... وإن عدد الفقراء كبير جداً وإن أحذيتهم البالية تملأ أرض المغارات والأطراف والمقابر وأنابيب المجاري الضخمة.

وإن عدد الفقراء سيزداد وستتنوع أشكالهم، وكل شعور بإمكانية زوال الفقر - رغم أنه شعور بالغ القداسة - كل شعور من هذا القبيل عندما يتحول إلى سيوف فإنها سوف تنكسر، وتبقى الخيل والليل وتبقى الحاجة إلى سيوف أخرى.

فيقول لي إنه كان في بيروت جائعاً هائماً على وجهه، وإنه مرة أمسك حجراً وصار يضرب باب منزل يعقوب شدراوي عند الفجر حتى خرج صاحب البيت وتشاجرا، ثم أعطاه الرجل خمسة آلاف قيمة نص المسرحية. ويقول لي إنه بينما كان جائعاً أيام عرض المسرحية، كان رئيس الجمهورية سليمان فرنجية يحضر عرض المسرحية.

ويقول إنه كان يجوع باستمرار ويُثقب حذاؤه باستمرار وتنتهي علبة سكائره باستمرار، وإن نزار قباني عندما كان يكتب عن الدانتيلا... كان هو وزكريا تامر لا يجدان بساطاً ينامان عليه وإن زكريا عندما كان يكتب يقرّب عينيه لتلاحقا الورق، وكان خطه رديئاً، ولكن كلماته تمزق ستائر الحضارات الزائفة. وإن زكريا كان حداداً ثم صار أعظم كاتب قصة قصيرة.

ويقول لي إن فان كوخ قطع أذنه وأرسلها برسالة لحبيبته، ونزف حتى مات، ولم يكن يملك أكثر مما كنا نملك أنا وزكريا تامر...

وأقول له إن الفقراء الموهوبين يكتبون بصدق وعندما يشبعون يكذبون في كتاباتهم... وينتهي دورهم في مسرحية الحياة.

وأقول له إن النصر في النهاية للتجار... وكلما زادت أرباح التجار ازدادت الجماجم والضمادات وازداد القطن الطبي وازدادت المصارف وغسيل الأموال وقروح الفقراء لن تندمل وأطراف الفقراء المبتورة لن تعود إلى أمكنتها وإن رايات الغرغرينا ستبقى تزداد وتخفق.

وكان يضحك حيناً ويزمجر حيناً آخر من رداءة هذا المنطق، ويعارضني حيناً وكنت أراضيه وأشرب نخبه... باستمرار.

وكنت أدوخ من كثرة ما يقدم لي من شراب وأدوخ أكثر عندما أتذكر كيف اختصر الجوع البشري بأنه كان يقضم خدوده من الداخل، وكيف اختصر الخوف عندما طالب أمه بأن تخبئه في كيسها الممتلئ بالخيطان والأزرار.

حضرة الأخ عيسى المحترم
تحية طيبة وبعد...

أعلمكم بأنني وصلت إلى دمشق في الساعة الحادية عشر ليلاً أرجو أن تحضر متى تيسرت أمورك إلى فندق قصر المأمون... قريباً من الكراج وله ثلاثة قارمات وهو قريب من الكراجات. اسأل عنه إذا لم تجده. لا تحضر إلا وتؤمن على الرسائل إلي بالصندوقة بحيث تضعها في الاوضة النصانية بعد أن تحتفظ معك بصور (س) من شيء والرسائل التي يوجد بها عنوانها وعنوان ليلى أو غير ذلك. أرجو أن لا تتأخر في الحضور...

لم أتصل بأحد الآن لأنني أكتب إليك هذه الرسالة في الصباح الباكر وبعدها سأحاول الاتصال.. لا تعلم أحد بعنواني واسلم لأخيك.

١٩٥٣/٩/٩

المخلص

إذا لم أكن موجوداً بالفندق وليس مسجلاً اسمي به فانزل به أنت وأنا اتصل بك....

أخي عيسى
تحية قلبية وبعد

عفواً إن تأخرت في الكتابة إليك فليس هذا إنني نسيتك وإنما الظروف السوداء التي واجهتني في دمشق ولكن فرجها الله والحمد لله واستأجرت غرفة وكل صباح اذهب إلى عملي وأعود الساعة الثانية بعد الظهر...

وأعلمك بأنني لم أواجه الجماعة منذ أن سافرت إلى السلمية.

وفي هذا اليوم ذهبت إلى دارهم فلم أجد سوى (ل) الصغيرة وبعض الأولاد وسلمتها ورقة مكتوبة وإنني خائف من أن أحداً يطلع عليها فتصعب القضية أرجو أن لا يحدث شيء واليوم أنا أتدرج في شارع الاطفائية رأيت (ل) الكبيرة مع بعض النساء وهي رأتني أيضاً ولكن لم تسمح الظروف بالمكالمة.

وأرجو أن تعلمني إذا كانت المراسلة مستمرة بينكم للآن أم لا فإن هذا يقلقني وكأنني لست بدمشق بل في تركيا... لا أعلم شيئاً وهل كتبوا إليك عني بسبب عدم الاتصال، وعني أرجو توضيح ذلك... وهل يراسلك خالد أيضاً أم لا.

كيف حالك في هذه الأيام وهل ستذهب إلى دار المعلمين أم لا أريد أن أعرف ذلك... وعن الأخبار في سلمية (جهنم الحمرا) وكيف إخوتك

وأم محمد وأبو محمد وأختك خديجة وتحياتي القلبية وقبلاتي إلى زوبعة.

وأعلمك بأن لي في ذمة الحكومة راتب عن شهر كانون الثاني وعشرة أيام من شباط قال لي مراقب الزراعة بدمشق أنه سنقبضهم عن قريب فأرجو أن تذهب إلى السرايا وتسأل عن ذلك وتعلمني بالجواب...

وعن موعد فحص المطلوبين لخدمة العلم حتى ننفحص.

وأعلمني عن أخبار دعكول وقل له إنني سوف أعطيه كل ما له مني عالدور بارة فلا يزعل... هو وغيره... بس العجلة من الشيطان والتأني من الرحمن.

أرجو أن تخبرني عن كل شيء يخصني وإلا زعلت منك...

واكتب لي إذا كنت تريد شيئاً من دمشق حتى أرسله لك وابلغ أماناتك إلى أصحابها.

كيف أبو الحاج بلغه سلاماتي الحارة واعلمه بأنني سأبعث إليه برسالة قوية تعجبه كثيراً وإنني دائماً أذكره...

وبلغ تحياتي إلى أسعد حافظ وأعلمني عن مكان إقامته لأكتب إليه كما أرجو أن لا تعلم أحد على عنواني مطلقاً.

وختاماً تقبل فائق احتراماتي الأخوية.

١٩٥٣/١٠/٢

المخلص

العنوان: دمشق- شارع العابد- حارة العاني- رقم /٨١/.

أخي العزيز عيسى... *من دمشق في ٨/ ١٠/ ١٩٥٣*

التحية الخالصة وبعد....

لقد وصلتني رسالتك وسررت بها كثيراً كما تألمت كثيراً.... نعم تألمت لما كان وماذا حدث بعد ما كان... إنني أؤكد أنها صدمة عنيفة بالنسبة لك ويجاز أن أقول لي أنا أيضاً... لأنني أحبك واحترمك... لا تفكر يا أخي عيسى إنك شاب في مقتبل عمرك... لم تخض معركة الحياة على حقيقتها بعد وسترى في المستقبل كثر مثل هؤلاء الفتيات اللعوبات... أنا أعرف أنها كانت تكتب للتسلية... كانت تغرك بالكلمات الجميلة العاطفية حتى كادت أن تقتل مستقبلك... ولكن أظن أنك أكبر من أن تفكر بمثل سلوى التي نقبت كثيراً عن ماضيها وحاضرها وسلوكها أنها ليست كما يجب لها سوابق عديدة مع شبان عديدين ومعروفة بالحقارة عند أغلب الذين ترى أسماءهم في صفحات دنيا الكواكب والرقيب والدنيا... فكن فرحاً لخلاصك من هذه الذبابة التي أصبحت احتقرها بشكل عنيف... لا لا يا عيسى لا أريدك مطلقاً أن تفكر بها كفتاة عرفتك بعلاقاتها وماضيها أنها ليست مضبوطة.... ليست مضبوطة.... ولابد وأن تجمعنا بها الظروف مع ليلى أو لوحدها....

وسأجعلها تبكي دماً وسماً لما سببت لك من آلام ومتاعب.... كان يجب أن لا تحدث لشاب بريء وطموح مثلك... إنني احترمك وأحبك كثيراً... يجب يا أخي أن لا تؤمن بالحب المثالي لأنه نادر.... وهل من المعقول لو كانت فتاة بريئة وشريفة تراسلك بهذا الشكل وتكتب لك أشياء بذيئة في رسائلها وتحضر إلى الفندق خفية عن أهلها... ماذا تعمل لو كانت أختك أو قريبتك بهذا الشكل.... ألا تعتبرها وهي جبة... أرجوك أن لا تفكر بها أبداً وانسخها من ذاكرتك.... على الإطلاق.... فأنت شاب في مقتبل العمر... ستلقى شريكة حياتك من جنائن الشرف والعزة لا مثل هؤلاء اللعوبات الشيطانات...

أما من قضية الرسائل والصور فإياك أن تردهم إليها إياك ثم إياك فاحتفظ بهم كثيراً جداً.... ولا تفرط بهم مطلقاً لأنهم سلاح فظيع بيدك... أوعدني بأن لا تردهم مطلقاً...

وأنا كما قلت لك إن اجتمعت بها أو بليلى سأفهمها حقيقتها ونفسيتها إن كان لها حقيقة ونفسية.... إنني لن أنساك مطلقاً لا تفكر....

أما من جهة حياتك في السلمية فإياك أن تخنع للقنوط والانفراد إنه يقتل مواهبك ويزجك في الأمراض. لا تفكر بالناس والأصدقاء.... لأنه ليس هناك أصدقاء... اعتمد على نفسك فقط وفكر بالمستقبل فهو باسم أمامك ولا تزال حديث السن....

وأنا لن أقصّر من ناحيتك مطلقاً وفي نهاية الشهر سترى إنشاء الله.... حيث سأحاول أن تأتي إلى دمشق لتمضي بعض الوقت عندي.... من هؤلاء الذين تحدثت عنهم... على الحجي حسن، محمد

إسماعيل.... إنهم حشرات يغارون منك... يقتلهم الحسد من نفسيتك ومستقبلك... إن معك شهادة تكفل لك الحياة لوحدها... فبماذا تفكر... حاول أن تكون حياتك. لا بأس بها مع أهلك... كام يوم حتى يفرجها الله... إن أي إنسان لم يتعذب مثلي والآن الحمد لله يحاول إفراجها، له الشكر. إنني لن اكتب لأحد من هؤلاء رسالة لأنني لا أؤمن بالصداقة المثالية فهي نادرة فالاعتماد على النفس هو كل شيء.... في الحياة... كن أنانياً يا عيسى إلى أبعد الحدود فتحترمك الناس لا تفكر بهم أنهم ذباب... اسحق نفوسهم بقدمك إنهم ديدان تتطفل على أجساد الناس وأرواحهم لا تفكر بهم.... وحاول تحطيمهم أو إهمالهم بشكل نهائي...

إنني سأقول لك وحدك ماذا اشتغل...

إنني اشتغل مؤقتاً لمدة ليست طويلة في رحبة الهامة (معلم زراعة) براتب (١٦٠) ل.س. شهرياً واستأجرت غرفة أنا وإسماعيل ريشة حيث يشتغل هو أيضاً بالرحبة والغرفة بدمشق قرب المحكمة العسكرية... غرفة جميلة ومفروشة... ومبسوط نوعاً ما... طالما بعيد عن السلمية. ولكنني مقهور جداً من أجلك... ولكن أريدك شاباً ذو نفسية كاسحة تدهس العقبات وتلك الذكريات الفافوش التي يجب أن لا تعلق بذهنك لأنك أرفع منها. والأيام ستعلمك الكثير وترى العجائب... يا ما في بالدنيا...

اكتب لي رسالة كبيرة واشرح لي كثيراً عن أحوالك وهل لا تزال متألم أم لا... وعن كل شيء... عن الأهل والأخوة والجميع وعن إنتاجك الأدبي... وإسماعيل بعث لي رسالة فظيعة... أوعى تخليه

يدخل الزراعة إن هذا مستحيل أنا أتكفل بمصاريفه في المدرسة الأهلية يجب أن لا يعطّل مستقبله كما حدث معي... وأرسل لي صورتك وأن تكون جديدة... وهؤلاء الذين يغارون من كتابتي سأحطمهم بنعلي. إن كثير من الصحفيين والمجلات الراقية تطلب مني لأن أكتب إليها نعم سأحطمهم وابشر يا عيسى وسترى ماذا سأفعل بهؤلاء الكلاب...

هل كتبت للجماعة رسائل جديدة أم لا وهل كتبوا لك غير تلك الرسالة التي تعتبرها أنت مشئومة بل بالعكس إنها مفرحة... لأنها كشفت الحقيقة فافرح كثيراً لذلك....

محي الدين خلف يهديك السلام وأنا أقدم إليك ملايين السلامات... أرجو أن تكتب لي الجواب فور وصول هذه الرسالة أن تكون كبيرة جداً لا تخلي شيء بعقلك إلا ما تكتبوا... واكرر سلامي القلبي لك ولأهلك. تحياتي إلى دعكول. واسلم للمشتاق.

أخيك

محمد الماغوط

العنوان الجديد:/ دمشق- شارع العابد - حارة البحتري- منزل رقم /٨١/- إلى محمد الماغوط

دعكول: دكان صاحبه من القدموس استدان منه وبقي له بضع ليرات ثمن دخان حتى الآن.

إياك واليأس... فإنني لا أريده أبداً...

أنتج قطع أدبية رائعة جداً وانشر بكثرة في كل أسبوع ثلاث قطع أو قطعتين لحد القطعة وبإذاعة القدس... وسأصدر ديوان عما قريب ببيروت ولن أدفع مقدماً أي درهم وسأربح من ورائه... ألا تقرأ قطعي الجديدة - الجبان - قصيدة الرحيل - نزهة العشاق - الحقد - الفراشة السمراء - الأم الكسولة - خائنة - الخطوات العنيدة - الغبار...

هذه بعض القطع التي نشرتها وأنا في دمشق لقد أعجبت بقطعك التي أرسلتها لي فأهنئك ولكن لا تكن غامضاً إلى هذا الحد...

كما أنصحك أن لا ترسل إلى المجلات مطلقاً فأنا أعرف أن هذا لصالحك بكثير مما لو أرسلت...

تعرفنا على جماعات كثيرة نساء ورجال... وأكتب كثيراً ولكني خائف من المستقبل ولكن ليس بالقدر الذي يجعلني متشائماً لا... ففي العالم أجواء وآفاق سأحياها بعونه تعالى...

طمن دعكول وشركاه... وبلغه تحياتي واسأل لي عن الراتب في السرايا... أما قضية رواتب اللاذقية فأنا سأتدبرها.

لا تزعل يا عيسى... في نهاية الشهر إنشاء الله ولم يحدث لي

شيء أو لك ستحضر لعندي إلى دمشق وتسمع الراديو وأفصّل لك ثياب وكل شيء فأنا لن أنساك.

المخلص

هاأنذا انتهي من الرسالة حوالي الساعة الثانية والنصف حيث قرب انتهاء العمل لأنهض عن الطاولة وأتدرج إلى البيت وأمر بالجامعة السورية حيث طالباتها الجميلات. فوداعاً للرسالة القادمة.

الجواب فور وصول هذه الرسالة
لأرى رأيك بمحتوياتها

أخي عيسى دمشق في ١٩٥٣/١١/٥

تحية قلبية وبعد

لا أبالغ إن قلت لك بأنني أشتاق إليك وأذكرك أكثر من أي إنسان في الوجود وهذا ما تعرفه جيداً والسبب في تأخري عن الكتابة إليك هو أنني كنت انتظر منك رسالة بعد ذهابك إلى حلب لتعلمني بما حدث معك وقد قال لي محمد ريشة انك سترسل لي رسالة وانتظرت حتى وصلتني رسالتك الأخيرة... فمن الآن وصاعداً ابشر بالرسائل...

تسأل كيف تقضي أوقاتك في دمشق... إنه يكفيني أن أكون بعيداً عن سلمية تلك الوحدة المظلمة في العالم إنني اكرهها جداً لأنها منبع شقائي ومصدر الأنين لقلبي التعس. إنني أذهب إلى العمل الساعة السابعة وانتهي منه الساعة الثالثة بعد الظهر وأعود إلى دمشق حيث أتناول الطعام وبعدها إما يأتي رفقائي لنسهر سوية مع شرب الشاي وإما اذهب (للكسدرة) أو للسينما وكتابة قطع وقراءة صحف وجرائد وهكذا... وأتمنى جداً أن تكون عندي دائماً، وإنني أبحث لك عن عمل وبسرعة وباهتمام فمتى تم ذلك سأرسل لك رسالة لتحضر لعندي ولكن أتمنى من الله أن تكون في عداد الناجحين في دار المعلمين لأنه خير لك ولمستقبلك...

لا تيأس يا عيسى فإنني متفائل جداً بمستقبلك مستقبل زاهر وممتاز

بعد تلك الصدمة التي اعتبرك قد نسيتها أليس كذلك وتلاشت من قلبك المخلص البريء. كن واثقاً من نفسك ولا تدع الحزن والملل يتسربان إليها فإن نفسك ليست جديرة بالوحدة والهم والحزن...

كيف حالك يا عيسى... وكيف تقضي أوقاتك... اكتب لي عن كل شيء... لأنني أريد أن أعرف كل شيء عنك... لا تنسَ أخوك إسماعيل... يجب أن يبقى في المدرسة الأهلية لأن ذلك ضامن لمستقبله...

كيف زوبعة... أليست جميلة كثيراً... أرسل لي صورتها في جواب هذه الرسالة مع صورتك . كيف والدتك وإخوتك جميعاً ووالدك.... إنني لست مسروراً منه....

إن ابن عمك خالد خضر خليل يحضر لعندي إلى الغرفة دائماً ونسهر سوية وكذلك علاء الدين فهم يهدونك عاطر تحياتهم وكذلك إسماعيل ريشة ومحمد ريشة كما أنني أعلمك بأنه تعرفت على أدباء كثيرين وراقين في دمشق... دائماً يأتون لعندي إلى الغرفة إنني أتمنى لك التوفيق من كل قلبي لأنك الإنسان الوحيد الذي اعتمد عليه في هذه الحياة فلا تخيب ظني... لا تبالي بالأعداء في السلمية إنهم كالذباب لا قيمة لهم.

إنني لم اتصل بالجماعة مطلقاً ولم أحاول ذلك لأنهم لا يستحقوا كل هذا يجب أن تنساهم أيضاً ولكني أريد فقط الاتصال بخالد لأعرفه على حقيقته وحقيقة عائلته... ولكن اكرر بأن تحتفظ بالرسائل والصور بشكل أمن جداً ليبقوا حتى اللزوم... وأنا أعدك بأن أتدبر الأمر بكل دقة ورجولة لا تخف....

إنهم لا يستحقون تنهدة واحدة من قلبك البريء يا عيسى.

إنني يا عيسى باستطاعتي الآن التعرف على كثير من فتيات أجمل

منهن بكثير ولكن لن أحاول طالما كلهم خائنات يعذبون الإنسان لمدة وجيزة فقط...

وأؤكد لك انه إذا لم تنجح في فحص دار المعلمين بأنني سآتي بك إلى دمشق ولو لم تشتغل شيئاً... لا تخف من هذه الجهة...

لا تؤاخذني على هذه الرسالة لأنني اكتبها بسرعة بسبب احد الرفاق الذي أتى يقصدني لبعض المشاكل...

فسوف أرسل لك رسائل دائماً وخصوصاً الرسالة القادمة ستكون (تحفة). تحياتي إلى دعكول وشركاه..

كيف أبو الحاج بلغه تحياتي... وأعلمني عن اسعد حافظ إلى أي جهة ساقته الجندية. لا تنسَ الجواب بسرعة مع صورتك وصورة زوبعة...

بلغ تحياتي إلى أختي خديجة وزوجها وفاطمة ومريم ووالديك وإسماعيل الملعون. أرسل لي صورته إذا كانت موجودة.... لا تنسَ صورة زوبعة.

وختاماً تقبل فائق احتراماتي.

المخلص إلى الأبد
محمد الماغوط

محي الدين خلف يهديك عاطر السلام.

أعلمك بأنه أصبحت لي مكانة أدبية كبيرة في دمشق... وإنني سأساعدك كثيراً يا أخي فاتكل علي فأنا مخلص لدرجة لا حدود لها. ثق بي يا عيسى.

أخي عيسى

تحية قلبية وبعد

لقد تسلمت رسالتك من اسعد في هذا اليوم الأربعاء مساءً... إنني سررت بها لدرجة كبيرة وأنت تعرف ذلك وعلمت سبب تأخرك في كتابة الرسالة.... ولكن آه...

لقد سررت كثيراً بالأمل الذي بدا في قضية دار المعلمين. إنني قلق بشأنها وأتمنى لك النجاح من كل قلبي لأنك اعز إنسان في الوجود علي... إنني أحيا حياة شاعر مخلص لفنه وأدبه فقط وعلى كل حال مهما كانت الظروف فأحمد ربي على أنني بعيد عن سلمية... تلك اللطخة السوداء في مساكن الشعوب....

إنني كنت قلقاً وحزيناً جداً للوضع الذي انتهى مع (احمد) ولكنني طموح واعرف المستقبل ولو بشيء من التروي... كنت اعلم أنني لن أصبر ولن أقعد على ارض حتى اتصل بهم أو بأحدهم... وقد قررت الانتقام... لما سببوه لك من متاعب وأوهام كنت أنت بغنى عنها... وما أصعب جرح العاطفة في فورة الشباب... أظن أنني قلت لك في السابق وبإحدى الرسائل أنني كتبت إلى (ل) رسالتي ولم أتلق جواباً أصبحت احتقرها تلك السمراء المرحة ربما تكون معذورة ولا أقدر أن أعلل ذلك...

وكتبت رسالة إلى خالد أطلب فيها مواجهته... فلبى بدون تأخر وواجهته وتكلمنا كثيراً عن الحالة فقال أنه ليس في الموضوع شيئاً جديداً أو معكراً وهو ممنون جداً لذلك الانقطاع والسبب الذي علله هو كثرة الضغط على أحمد من قبل أهله من جهة الرسائل وخوفاً من انكشاف السر... وقد قال لي خالد أن أحمد لا يزال يخلص لك تمام الإخلاص كالسابق ولكن الظروف كانت تعاكسه تماماً فلا تلمه وتأثر كثيراً لحالتك وتأثرك ودائماً يسأل عنك فلا تكن قاسٍ بحكمك عليه يا عيسى... وأنا سأحاول الاتصال بهم دائماً... وإن خالد يحبك كثيراً جداً وينتظر منك رسالة بفارغ الصبر فلا تتأخر... واحترس بقضية (فلتات لسانك) من الحقد أو الزعل.... فأنا قلت لك كل شيء على ما يرام فلا تخف...

يوم الثلاثاء الماضي دخلت أنا وخالد ورياض على السينما وتسايرنا وأعتقد أن يوم الجمعة سأذهب لعنده إلى البيت وسأعمل جهدي للاتصال....

كيف حالك في هذه الأيام يا عيسى طمن الديّانة بأنني سأرسل لهم شهرياً ما يتوفر معي لا يزعلوا ويجب أن يقدروا وضعي الآن...

كيف أهلك جميعاً وزوبعة... وخديجة وهاشم تحياتي للجميع....

لقد تصورت صوراً في دمشق، واصلك واحدة منهم ضمن هذه الرسالة كذكرى إلى الأبد... يجب أن تعلم خالد في رسالتك عن عنوانك الجديد إذا أردت مغادرة السلمية لدار المعلمين مثلاً حتى لا تأتي رسالة من خالد أو لأحمد في غيابك ويطلع عليها أحد من الملاعين لا تنسَ ذلك يا عيسى...

أرجو أن تكتب لي بعض ما كتب لك أحمد في رسالته الأخيرة...

وهل تحدث عن ليلى أم لا... كما أرجو أن ترسل لي صورتك مع الجواب أرجو منك يا عيسى أن تكتب جواب هذه الرسالة فور وصولها وترسلها لي فأنا أعد الأيام لا تنسَ مطلقاً.

أرجوك أن لا تكتب إلى مجلة أو ترسل لها مثل الرقيب لأنني ازعل جداً عندما يكتبوا عنك شيئاً . واسلم للمشتاق.

لا تقل لأحد عن عنواني مطلقاً لأي كان.

في ١٩٥٣/١١/١١

العنوان كالسابق

أخي العزيز عيسى *من دمشق في ١٩٥٣/١١/٢٤*

التحية

ما هذا يا عيسى... حتى ولا رسالة ولا جواب... ما كنت انتظر منك هذا وأنت تعلم مدى حبي لك وإخلاصي الأكيد... لقد بعثت إليك برسالة منذ مدة ليست قصيرة وأنا انتظر الجواب ولكن لم أحظ به... ترى ما السبب هل أنت نسيتني أم لا تريد الكتابة إلي أم ماذا...

إنني فعلاً أحيى حياة مناسبة هي أحسن بكثير مما كنت أعيش وعلى كل فالوجوه الكالحة التي تعرفها ليست تقابلني بنظراتها المملوءة بالحقد والحسد.

إنني أعيش عيشة شاعرية في دمشق تلك المدينة الصاخبة المملوءة بكل شيء ولكني أحس بالنقص دائماً وسببه بعدك عني... أريدك بقربي ولكن هي الظروف الظروف اللعينة التي قلبها من صخر لا يحن ولا يلين... ولكن خسئت الظروف بقساوتها والليالي بفراقها أنت في قلبي لحن الأخوة وفي ضميري سنبلة الوحي والحنان... إنك لا تغيب من فكري ولا لحظة واحدة...

ولا أدري ما سبب تأخيرك في الكتابة إلي وأنت تعلم قيمة الرسالة

ومفعولها بي وخصوصاً مرسلة منك وصراحة لا أريد أي رسالة إلا منك أيها الغالي الحبيب.

كيف حالك في هذه الأيام... كن قوياً يا عيسى وأنت تعرف ما أقصد... ماذا حدث معك في قضية دار المعلمين...

كيف زوبعة وإسماعيل وفاطمة ومريم والوالد والوالدة وخديجة وهاشم... لهم تحياتي.

طمن دعكول وشركاه بأنني لن أنساهم وسأرد ما لهم بكل شكر وممنونية... في أقرب فرصة...

رسالتك وصلت إلى خالد وقد قرأت بعضاً منها وهو يهديك السلام وكذلك رياض.

هل تعلم عن راتبي شيئاً... أريد أن تعلمني وتسأل في السرايا...

إن (ل) خائن يا عيسى... وسأنتقم منه إنتقاماً رائعاً لأنه السبب على ما أعتقد بما جرى... هل تعلم عنه شيئاً. اكتب لي كل شيء... وفي الحقيقة كما قلت لك إنهم جماعة ليسوا كما يجب وخصوصاً أعلم ذلك باحتكاكي مع خالد... إنه من الجماعة تحت الوسط... من جماعة الأزقة التي تعرفهم. أخجل من أن امشي معه في الطريق.

أتمنى لك النجاح من كل قلبي وخصوصاً في دار المعلمين... وإذا لم توفق بها وهذا لا أريده سأحاول تدبير عمل لك بدمشق... ولكن إنشاء الله سننجح وتفقئ عين العواذل.

إنني في أحر من الجمر بانتظار جواب هذه الرسالة... لا تتأخر يا عيسى.

قبلاتي لك ولزوبعة. واسلم.

العنوان كالسابق- اكتب الجواب حالاً
تحياتي إلى عارف تامر.

المخلص إلى الأبد
أخيك محمد

اشتريت لك (كنزة) رائعة سأرسلها إليك قريباً مع بعض الهدايا...
أنا دائماً مخلص لك يا عيسى... كن مطمئناً.

أخي عيسى *دمشق في ١٩٥٣/١٢/٢ مساء الأربعاء*

تحياتي القلبية وبعد

إنني أحاول الكتابة وأريد من كل قلبي أن اكتب إليك في كل لحظة ولكن تتعارك الأفكار والخواطر من كل الأنحاء من البارز والمجهول فلا أستطيع أن أتم الرسالة إلا بعد جهد... ولكنك في قلبي أعذب ما في الوجود وأرق ما في الحياة من وداعة الأمل... إنني أعرف حالتك تماماً كما لا يعلمها إنسان لأنني مررت بها وإنني بالذكرى أحيا حياتك وأقضي أوقاتك في تلك البيئة الكريهة التي تقتل النفس وتميت الأعصاب... ولكنها لا تستطيع على الأقوياء شيئاً.

فانظر إلى الحياة يا عيسى من نافذتها الجميلة المعبرة لا من كهوفها الرطبة المظلمة... إنك بلا شك تنظر بتحرق لتسمع جوابي عن قضية تدبير عمل لك في دمشق... وأقول لك أنني لم أنس هذا مطلقاً وكانت النتيجة أنه يجب أن ننتظر هذا الشهر أي حتى مطلع السنة القادمة فإنشاء الله سأدبر لك عمل ممتاز بسهولة... وعلى فرض أنه لم يتدبر عمل بعد هذا الشهر وهذا ما لا أعتقده سآتي بك لعندي وتعيش معي فراتبي يكفينا بسهولة.

فمن هذه الناحية طمن بالك ولا تفكر فأنا أسعى لك قبل ما أسعى

لنفسي... وفي رسالة ثانية أي بعد هذه الرسالة مباشرة سأرسل لك (مبلغ) ما من الدراهم كخرجية لهذا الشهر حتى تحضر لعندي لدمشق في نهايته.

ولي عندك رجاء حار وهو أن تنسى (جماعتك) لأنهم كما قلت لك سابقاً ليسوا كما يجب وخالد مخلوق تافه من أولاد الأسواق فإنني كنت أخجل عندما أسير معه في السابق وفي هذه الأيام يراني في الطريق فيحاول أن يذهب معي (ويتدرج) ولكن أنا لا أريد... فنحن أرفع من تلك الطبقة التي تصر على ما تعرف... فلا ترسل له أي رسالة مطلقاً ولا تفكر به ولا بأحمد... إن رسالتك التي بعثتها لأوصلها له مزقتها ولكن عن طيب قلب لأنني أعرف صالحك... فلا تعره اهتماماً بعد الآن... وعندما تحضر إلى دمشق إذا أردت سنتدبر الأمر معهم. كما وأنه أريد أن أقول لك أن صديقة لأحمد تعرفت عليها منذ حضوري الأول لدمشق وصار بيننا غرام عنيف فكانت مخلصة إلى أبعد حدود الإخلاص وجميلة أكثر من أحمد بمليون مرة... كنا نذهب إلى السينما والحدائق وعلى الربوة وهي غنية جداً وبنت ناس لها سيارة تاكسي (أي لأهلها) ولكن الظروف لا ترحم لا تشفق لا تحن - منذ أسبوع أتدري ما حدث... لقد (ماتت) بشكل فجائي وذلك انتحاراً والسبب أعلم منه قليلاً ولكنه غامضاً اسمها (مها)... نعم ماتت (مها) يا عيسى وكم أنا ثورة في ضمير الحزن وغصة في وتر الحياة نعم ماتت مها. فما أتعس الحياة في مثل هذه اللحظات التي تفقدنا كل بهجتنا وحبنا ولكنها لا تزال في قلبي ذكرى بديعة بلون شعرها الفاحم والشامة الدقيقة على خدها الأيسر... (واساني الله).

أرجو أن لا تعلم أحداً بما اكتب إليك مطلقاً... لقد أعجبت بالصور كثيراً وأشكرك خالص عليهم وخصوصاً زوبعة التي اذكرها في كل لحظة... كيف أصبحت أليست جميلة و(بتكركر) يا عيسى.. ومريم وفاطمة وإسماعيل أفندي كيف حالهم جميعاً وأم محمد وأبو محمد أليسوا مبسوطين إنني اذكرهم بعض الأحيان وخصوصاً خديجة وهاشم كيف حالهم أتمنى لهم الوفاق دائماً... مبروك على حسن أهنئه بالزواج وانقل إليه تحياتي له ولعروسه. وأريد أن أسألك من هم الذين يضايقونك في السلمية...اكتب لي عنهم فأنا اعرف الدواء... كيف أبو الحاج أين صفّت أيامه وقل له إنني اذكره في كل لحظة تذكرني بأيامنا العابرة ولكن لا اكتب لسبب واحد هو يعرفه ذاته... بلغه تحياتي... وإنني عازم على أن أفتح له ذراعي عندما يحضر لعندي في دمشق لنقضي بضعة أيام في غرفتي الجميلة فأكون مسرور جداً... له تحياتي. محي الدين خلف لا أراه لأنهم (استنفار) وأسعد حافظ رأيته مرتين ثم لم أعلم أين صفّت أيامه.

على فكره احتفظ بالرسائل والصور ولا تفرط بهم مطلقاً وأنا أعلمك السبب (منشان احمد).

أخي عيسى *من دمشق في ١٩٥٣/١٢/٢٦*

التحية

الآن وبعد كل شيء أحاول أن أغمس ريشتي في جراحي لأكتب إليك... ولكن ترى ما لون هذه الجراح.... ما طعمها... إنها جراح الذكرى التي ترف على جبهتي باستمرار كالجناح الطليق العنيد.. كم ذكراك قاسية علي يا أخي.... لا لشيء... سوى لأنني احبك... واحبك أكثر مما يتصوره إنسان... وأتمنى أن ادفن خدي في أعماقك لنبكي كثيراً ونضحك كثيراً ولكن دائماً يلازم حياتي ملاك الإحساس الغريب والشعور الغامض المجهول... اشعر بالقلق لأنني اشعر ببعض السعادة سعادة ينقصها أن تحيى معي ونروح عن أنفسنا أعباء التذكر المضني والشوق الأبله المحموم... انك تحتقر المادة وأنا كذلك يا أخي... ولكنها الآن عصب تلك السعادة الصغيرة التي أحياها... فرغم احتقاري لها لا أفارقها إنها كالظلام الذي يهواه الشاعر ويمجه عشاق الزوايا...

نعم أنا اعرف أن وراء ديون... ولكن هل تفكر يا أخي أن أجوع وأطفر وأتعذب بضعة شهور في هذه المدينة الصاخبة لأدفع دراهماً لأحدهم... ليكدسها على أخواتها كمشروع ميكانيكي... وهي فعلاً طريقة غير مشروعة... عند العالم الأكبر ولكنها بشريعتي وشريعة كل

إنسان ينفذ إلى صميم الحياة... إلى قلب المجتمع الحقير... هي شريعة منجية ليس وراءها عقاب.

إنني لم أرسل لك دراهم... لأنني لم الق محي الدين خلف عندما سافر إلى سلمية وهو الواقع... لأنني مرتبك من الناحية التنظيمية... قلق من ناحية النفوذ إلى أعمق أعماق الحياة... فأرجوك أن لا تعتب علي يا أخي والمسبب لقلقي هو ناحية عملي حيث أنت تعلم أنها نهاية سنة ولا نعرف ما يكون نصيباً ولكن على ما أعتقد لن يحدث شيء لأن ظهري قوي من هذه الناحية.

وإنني لسعيد جداً بأن تكتب إلي كل شيء وفي نهاية هذا الشهر سأستأجر غرفة لنفسي وذلك انسب من قبل كما انه زاد سعادتي المسابقة التي ذكرتها فلربما تكون هي المنقذة لك من الضيق والضجر وو... ولكن يجب أن تعلمني عن مكان المسابقة في أي مدينة ثم انه إذا كنت تود الحضور إلى دمشق فمن اللازم أن تحضر معك فراش وتوابعه لأن الفرش التي عندنا لا تدفي مطلقاً لأنها قطن وأنا ابرد كثيراً ولكن ماشي الحال... فلا تنس ذلك ثم أرجوك الاتصال بشعبة التجنيد لنأخذ موعداً خاصاً وزماناً معيناً يكون بعد /٨/ في الشهر المقبل حتى احضر بمأذونية ونتفق أنا وأنت كما انهي قضية التجنيد.

آه يا عيسى كم أود أن أقص عليك كثيراً كثيراً جداً عن أشياء وأشياء قد تخصك وقد لا... ولكن المهم يجب أن تعرفها... ولكني لا أستطيع الكفاية في التعبير بواسطة رسالة... إن أحاديث تجعلني ككنز مليء بالأسرار.

والمفاجآت... حيث تعتمل في نفسي آلاف الخواطر والتكهنات...

وكلها سأشرحها لك شفهياً يا عيسى... وخصوصا منذ مدة بتاريخ ٢١- ١٢- ١٩٥٣ في قاعة سينما الفردوس حيث كان يعرض فيلم (سجين زندا) حدثت مفاجأة من أروع المفاجآت وأغربها.... مفاجأة جعلتني كالمحموم حتى هذه الساعة سأشرحها لك بدقة وصراحة عندما نتقابل قريباً... آه كم أود أن تكون بقربي الآن (لا مانع في مركز عملي) حيث المدفأة التي عندنا تمضغ برميل مازوت كل يوم ثم طاولتي الكبيرة الممتلئة بالأوراق والسجلات والدوايات والأقلام وصراخ الموظفين وشرب الشاي والقهوة وما شاكل ذلك.. ولكن الغد لن يأتي متأخراً وسنجتمع بسرعة إنشاء الله...

كنت معجباً بقطعتك المنشورة في جريدة فجر الطلبة ولكن أرجو منك أن تكتب أشياءً أنانية عن نفس المجتمع وعن سلوكه واعوجاجه وأن لا تكثر من أسئلة المجلات عن أشياء ليست ذات قيمة... أو لا تسأل شيء بالمرة فهو أحسن بكثير وأنت تعرف السبب جيداً. لا مانع أبداً من أن تكتب ولكن احتفظ بما تكتب... إلى المستقبل....

إنني إكتب قطعاً رائعة وأنشر كثيراً لأن ذلك بإمكاني وبسهولة في أي صحيفة في سوريا ولبنان والعراق أما أنت يا عيسى فلم تنضج أدبياً بعد فإلى المستقبل يا أخي...

كيف أبو الحاج... إنني زعلان منه... لأنني بعثت إليه ثلاث رسائل متتالية ولم أتلق منه جواباً فما السبب، على كل حال أنا أذكره دائماً وبلغه تحياتي القلبية وأتمنى أن يحضر لعندي لدمشق (لا تنس يا عيسى أن تبلغه ذلك). وإسماعيل... ماذا عملتم به خياط ما شاء الله - إنها جريمة - وخديجة أتمنى أن تكون في غاية الراحة.

مسكينة كم أتعذب من أجلها... لأنني دائماً أذكرها... وزوبعة... يا مولاي (شقد بريد شوفها) وفاطمة ومريم لهم قبلاتي أما إسماعيل فله مليون قبلة مع زوبعة...

كما أرجوك أن تبلغ الوالد والوالدة تحياتي وقل لهم بعد كل الذي بدر منه في إقامتي الأخيرة بسلمية أذكرهم وأحن إليهم... بلغ تحياتي للذي أحبهم وتحبه فقط ولا تنسى وصيتي لأبو الحاج... كما بلغ تحياتي لمحي الدين خلف وقل له إنني زعلان منه لذهابه إلى السلمية بدون أن يمر علي... ودعه يكتب لي رسالة صغيرة وابعثها لي ضمن رسالتك وقبله عني.... جاوب يا عيسى على مجمل الأسئلة التالية برسالة عاجلة فور وصول هذا التحرير...

١- في أي مكان أو مدينة سيكون فحص المسابقة.

٢- تدبير فراش ولوازمه إذا كنت ستحضر ولا بد لعندي.

٣- تحديد موعد من التجنيد بعد /٨/ بالشهر المقبل لأحضر بمأذونية.

واسلم لمن لا ينساك.. واسلم إلى اللقاء الحقيقي في دمشق.

المخلص

عندما احضر إلى السلمية من اجل التجنيد سأحضر لك بعض الأغراض.

أخي عيسى دمشق في ١٣/٢/١٩٥٤

أعمق التحيات

في الواقع لم اعد كإنسان لا لم اعد قبراً يتحرك تحت الشمس.. بل نزوة وحشية ضارية وعنفوان جريء... يصعد القمة لا ينحدر بل ليصعد إلى قمم أخرى... أنا زورق أعمى وشراع عنيد يضج بين الأمواج ويعربد بين التماسيح والحيتان الأكولة يقتلها كقرصان شجاع لا يعرف المستحيل...

أنا في ثورة الحياة العاتية في خوطة الأجيال الوقحة في كل شيء أذكرك يا أخي وأحن إليك... ليس هذا مجاملة بل حقيقة ناصعة ووجودية بارزة في حياتي وأعمق معاني حياتي... وإن كتبت في الواقع لم أبرهن الآن عن إخلاصي لك من بعض النواحي التي تعرفها أنت بأنها تافهة... ولكن اعترف بنفسي أنني مقصر... ولكن كما أسلفت لك لا أعي من أنا أين أسير وأين أمضي وأتلوى كثعبان أحمر يأكل التراب بجلده المقزز.

كل ما أريده أن تكون كما أنت لأنني فخور بك... فخور لدرجة عظيمة لا تقف عند حد ولا تحجم عند منعطف أنني الذي أأمل منك الكثير... لأنني رجل بلا مستقبل.... رجل يحب الخريف ويكره

الربيع.. يهوى الأغصان العارية ويكره البراعم الملتصقة على أشجار الورد... أحب الثلوج والعواصف والرياح... واكره النسيم والشمس والقمر... لأن فيها ضياء.. الضياء المخيف...

أحب الليل ذلك الوحش الذي يشبه قلبي... أحب كتلة الصخر الجامدة التي تقاتل العصور والأجيال لأنها كقرطاسي الذي سيأكل التاريخ ويمحق الأساطيل...

إليك يا أخي إليك وحدك أنشر حقائق نفسي... لأنك قطعة من نفسي الأخوية ولست أدري إن كنت مثلي في هذه العنصريات الشاذة المنجرفة التي تسير كالتنين وتزأر كالليث الجريح.

كيف حالك في هذه الأيام... أوقاتك مشاريعك المؤقتة... رفاقك... محبوك، أريد أن أعرف كل شيء عنك... لأن ذلك أكثر من ما يهمني...

كيف أبو الحاج أنني مشتاق إليه ولم استلم منه أي رسالة...

إنني في عملي السابق واستأجرت غرفة جديدة في إحدى أزقة دمشق الغامضة الدنسة... حيث النساء الرخيصات أكثر من أي شيء... ابعث لي صورتك وصورة إسماعيل مهما أمكن لأنني بحاجة روحية اليهما...

كيف أهلك جميعاً وزوبعة قبلها عني كثيراً إنها الخيط الذي يربطني بتلك الديار ولكن بعدك أنت يا أخي.

وإنني في الحقيقة لا أستطيع الكتابة لأن القلق والشرود والملل هذا الثالوث اللعين يتجسد في نفسي فاعذرني يا أخي... وكلما سمعت هذه الكلمة من فم عبد الوهاب في أغنية فلسطين أبكي وصدق أنني أبكي

لأنني واثق من أنك تشتهي سماعها... كلما رأيت فيلم سينما أذكرك بعنف وقوة وأتمنى أن أستحيل إلى غيمة شاردة أو نجم راحل إلى حيث أنت يا أخي..

إنني منذ مدة طويلة لم أواجه علاء الدين ولذا أعلمك إن وردتني رسالة منك أو من أبو الحاج في هذه المدة ولذا سأكتب لك العنوان الجديد في آخر هذه الرسالة وأعطه لأبو الحاج ليكتب لي...

أسرع مهما أمكنك في كتابة الجواب إنني في أعنف مراحل الشوق لقراءة أفكارك... أفكار أخ حنون مخلص اكتب لي عن كل شيء... رسالة كبيرة كبيرة جداً أريدها لتكون تحفة رائعة أستسيغها إلى الأبد.

بلغ تحياتي للوالد والوالدة وفاطمة وإسماعيل ومريم وقبلاتي الخاصة لزوبعة...

إذا تمكنت ابعث لي عنوان محي الدين خلف نصره من أحد أصدقائه أو أهله لأنني لا أعرف عنوانه ولا هو يعرف عنواني.

لا تنس تحياتي إلى أبو الحاج وختاماً لك أعمق تحياتي وتمنياتي القلبية وإلى اللقاء في رسالة قادمة.

المخلص

محمد

العنوان:

دمشق - جادة البحصة - مكتب الخطاط ناظم - محمد الماغوط

آلاف التحيات إليك يا أخي.

عزيزي عيسى

كتبت الرسالة في الساعة الثانية والنصف واستلمت رسالتك الأخيرة وضمنها الأوراق الساعة الثالثة والنصف وقد وقعت الأوراق الموجودة وأعيدها إليك ضمن هذه الرسالة لإجراء اللازم.

ولك خالص الشكر والاحترام.

المخلص

أخي عيسى *دمشق في ١٩٥٤/٢/٢٢*

التحية

الحق أقول أن في رسالتك الثمار التي طالما اشتهيها.. الينابيع السحرية التي طالما تعطش قلبي لنقائها رغم أنها كانت لاذعة كالسياط قوية كإرادة شعب حر بكامله... قرأتها مرات وكنت في دنيا تسمو عن الواقع بدرجات بل بأكثر من الحدود والحواجز... كان فيها الشيء الذي أحسه نقصاً والتمام الذي تفتقده حياتي الممزوجة بالدم والتراب... ولكن قولك إن رسالتي لا تمثل الحقيقة بل وصف إنشائي فهو فيه شيئاً من عدم القدرة على التعبير بل وشيئاً من الخطأ... إنني تغيرت كثيراً يا أخي وأكثر من اللازم... في الهيئة وفي النفس... بدأت أنظر إلى الحياة نظرة مخلوق غريب... يعرفه الناس ظاهرياً ويجهلون نواياه.... أنا أعرفك يا أخي وأنت بحاجة إلى التعمق لكي تعرفني وتسبر غور نفسي... وأنا لا أشك إطلاقاً بكونك الظل الخالد الأبدي الذي أركن إليه وقت.

أخي وأنا في لحظة كتابة هذه الرسالة وإذ بي أبلغ بنبأ تسريحي من العمل أنا وكثيرين ومن شدة التأثر لا اقدر على كفاية هذه الرسالة... إنني من اللحظة السابقة إلى هذه اللحظة بدأت كبركان يهدد بالانفجار.

والى اللقاء في السلمية.

المخلص المعذب محمد

٥٤/١٠/٢٧

أخي عيسى

التحية...

في سيارة ضخمة وفي القطار وفي شاحنات فظيعة نقلونا إلى قطنا لنبدأ حياة جديدة لا نعلم منها إلا ما عشناه في هذه الفترة القصيرة... فلم نبق في مركز التدريب في قطنا إلا يومين حيث افرز كل منا إلى القطعة التي انتقاها الحظ أما نحن فقد انتقلنا إلى مدرسة رتباء الاحتياط في قطنا والحياة فيها على ما تبدو حسنة بالنسبة لغيرها من ناحية المنامة والطعام واللباس أما من ناحية التدريب الحكي بسرك (شيء ملعون) ولكن سنعتاد عليه إنشاء الله... أما من ناحية شعر الرأس فعلى الدنيا السلام (زمليط) شيء جميل الكل هنا حليقوا الرؤوس...

والشيء الجميل والحقيقي المثالي في العسكرية انها لا تفرق بين الألوان والطبقات... الكل متساوون في الحقوق واللوازم والحاجيات... انه شيء أحسه بأعماقي رائعاً وجميلاً... بادرة حسنة فتطمنوا من ناحيتي وطمن الأهل جميعاً وحثهم على الدعاء من اجلنا فأنا أحبهم كثيراً واعتقد أن تلك العقدة النفسية التي كانت تسيطر علي والتي لاحظتها بنفسك بدأت تزول... واقسم لك إنني احبك بشكل هائل

فظيع... حب لا يجارى... ولكنني لا أستطيع ترجمته إلى أفعال كلية بسبب العقدة النفسية التي أقول إنها بدأت تزول...

أرجو أن تعين قريباً وتستلم عملك وأن تدرس على البكالوريا لتدخل مدرسة ضباط الاحتياط فذلك أحسن بكثير...

بلغ تحياتي للوالد والوالدة وللجميع... وقبلهم عني وخصوصاً زوبعة أختك الصغيرة الجميلة وسلم على الأصدقاء جميعاً وطمنهم عنا أننا بخير...

واكتب لي حالاً الجواب على هذه الرسالة الموجزة فاعذرني لأنني كتبتها على عجل وسأكتب رسالة وافية قريباً.

ولا تنس أن تعلمني عن عنوانك عندما تتوظف.

وختاماً قبلاتي لك وللوالدين والأخوة وسلامي الحار إلى أختي خديجة وهاشم... واسلم لمن لا ينساكم.

المخلص

محمد

٩٥٤/١١/٢

والدي المحترم

تحية قلبية وبعد

إننا والحمد لله في تمام الصحة والعافية ولا ينقصنا سوى مشاهدتكم... ولا نطلب منكم إلا الدعاء والسماح.

وأرجو أن تعلموني عن أخي عيسى هل تعيّن وفي أي بلدة وأرسلوا لي عنوانه كما يجب أن تعطوه عنواني حتى نتراسل وخبروني عن والدتي العزيزة وأخواتي جميعاً فأنا في غاية الشوق إليهم ولن أنسى حبكم لي وعطفكم علي... إنني مقصر.... مقصر جداً في حقكم. فأرجو السماح....

إنني مرتاح في مكاني على غير ما كنت أتوقع وأخاف فلا يكن لكم أي فكرة من ناحيتي والشيء الذي أريده هي أن لا تنقطع تحاريركم عني... أرسلوها دائماً لا تنسوا سلاماتي إلى أخي عيسى وعنوانه وحالته...

وسلموا لنا على جدي وستي وحسن وقيمة والجميع وكل من يسأل عنا بطرفكم.

وختاماً قبلاتي لك وللجميع ولعيسى الحبيب.

المخلص

محمد

لا تكتبوا شيئاً زيادة عن العنوان الموجود على الظرف.... وهو.....
مدارس الرتباء- مدرسة نقباء الاحتياط- الدورة الثانية ب.ع. ٢٨٨
يصل ليد التلميذ النقيب محمد الماغوط.

أخي عيسى
التحية

كان القيظ شديداً والغبار يأتي من السفوح الرمادية الجافة عندما كنا نحن الجنود نشكل خطوطاً صفراء مزدحمة كأمثولة العدس عندما وزعوا علينا الرسائل... كانت رسالة منك... أشبه بنجمة ثلجية سقطت على قلبي العطشان... لم افتحها رأساً لأن هناك صوتاً خشناً يدعونا للسكوت والانتباه فستبدأ معركة الطعام... الهجوم على باستيل الشوربا والملفوف... يا سلام...

وأخذت الساعات تمر والدقائق اللعينة تدخل في بطنها الثواني ونحن نحس بشوق إلى فرصة نفض فيها الرسائل وكان المساء مساء الراحة والهدوء والشرود....

ودخلنا على النادي... قاعة عريضة متراصة بالكراسي والوجوه المختلفة المتباينة في احساساتها وفتحت الرسالة وقرأتها... قرأتها بشوق وذكرى تبعث في نفسي ما يشبه الجراح... آه كم أحبك يا أخي وكم أنا فرح لزوال تلك العقدة النفسية من أعماقي وكم سررت فيك بنفسك بإخلاصك بوعيك... وكم سررت بسكنى محي الدين الحكيم وزوجته عندنا إنهم جماعة طيبون ويجب أن تحترموهم كثيراً كثيراً جداً فأنا أحبهم لأن

محي الدين رجل طيب ومخلص وأمين فلا تزعجوهم بشيء... وبلغوهم تحياتي القلبية وأتمنى لهم حياة سعيدة مطمئنة... ولو عرفت ما هو اسم ابنتهم لحييتهم باسمها، وعلى كل حال قبلوها عني....

من جهة الرقيب إسماعيل أبو جدايل فأنا اعرفه جيداً أما الرقيب الأول شحود عطية فلا اعرفه وسأتصل به فوراً وأنا اشكره جداً للرفيق محي الدين فهو دائماً مخلص وكريم.

إنني أحبه وأحبه له قبلاتي.

يا أخي كم هناك في أعماق الحرمان من ينابيع خفية يدركها المحروم ويتعطش للارتواء منها وأنا هنا في حرمان منكم ولكني أحيا معكم وتحيون في قلبي وروحي ودمي...

آه كم هي الحياة غريبة وعجيبة هنا في هذه المعسكرات... في قدمي حذاء ثقيل ثقيل أكبر من (المعرجليني) ورأسي يلمع من قلة الشعر كطاسة الرعبة... آه كم أضحك على نفسي أمام المرآة وأقول مليح ملاً آخرة يا أبو الشباب وعندما أتلفت على رفاقي وأرى قرعاتهم اللماعة أتعزى وأقول سيري يا حياة على بركة الله - استاعد... استارح... يمين در... يسار در.... إلى الأمام سر... إلى المطعم سر... إلى التدريب سر... أي شيء بيعوف الحياة.. آه كم تضحكون عندما ترونني في هذه الهيئة وفي القرعة... الفظيعة.... وين يا عيسى أي قرعة الحمصي سلطة عند هي... لا تخاف...

ولذا أرجوك وأحثك أن تبذل جهدك وتدرس على البكالوريا حتى تدخل الكلية العسكرية قبل أن يسوقوك مثلنا... حاول الدراسة مهما أمكنك...

وختاماً بلغ تحياتي لوالديك الحبيبين وإخوتك جميعاً وللصغيرة الغالية. وخديجة وهاشم ومحي الدين وعياله...

ولك قبلاتي.

١٩٥٤/١١/٤

المخلص محمد

١٩٥٥/١١/٥

أخي عيسى

تحية الحب والحنان

وصلتني رسالتك بتاريخ ١٩٥٥/١١/٣ وكنت أشرب (متي) مع بعض الإخوان في المهجع حيث نمزح ونتحدث ونقضي الوقت ومع ذلك كنت أشعر ببعض الفراغ الثقيل يحز في نفسي... نعم كنت أتحدث وإذ بصديق لي يناولني الرسالة فحملتها وغادرت المهجع إلى الخارج فقد كان الطقس لذيذاً وثمة غيوم رمادية تائهة فوق التلال وأخذت اقرأ الرسالة وأنا أدخن سيكارتي الغالية... كنت اقرأ وأنا أتصورك وأتصور كل شيء وبصورة لا شعورية شعرت بحرارة مغرية تنسكب في عيني وشوق لاهب مثر يضغط على صدري فشعرت بمعنى الحرمان والإخلاص معاً يحفران في قلبي فجوات مليئة بالتذكر والحنين والهمس...

قرأت الرسالة عدة مرات وكاد أن يغمى علي من الضحك من كثرة ما فيها من نكت و(تجليط) ورقة شعور وإخلاص... ضحكت ولكن بقلب يريد أن يخفق معك وبعين تريد أن تراك ويد تصافح يدك....

وبدأ الليل يهبط من كل جهة البراظانات الكثيرة أخذت تنشد لحنها الرتيب المخلص... للطعام... للطعام وبعد المعركة الهائلة في سبيل عدة فرمات من الدهن واللحم والدفش ذهبت وحدي إلى غرفة المطالعة

وجلست وراء الطاولة وقرأت رسالتك مرة أخرى وأخذت اكتب... أخذت اكتب وكثير من الأفكار والصور تزدحم في مخيلتي والعواطف الأمينة الزاهية تتسابق إلى فم ريشتي التي تشاركني العاطفة والحب.

أخذت اكتب وأنا أتصور فيك مثال الوفاء والأخوة التي لا تقف عند حد أو تتراجع عند نكبة... وأريد أن اكتب كل موضوع وكل حادثة وكل شيء ولكن الوقت المحدود والنظام الذي يشدنا بقوة يجفف حبري ويقصر سطوري قبل الأوان ولكن كن على ثقة يا أخي أنه لو كان بالكلام والكلمات يستطيع الإنسان أن يعبر عن كل شيء يحس به ويعانيه لكتبت إليك ملايين الصفحات والمعاني ولكن القلب الذي يحبك ويهواك مازال كالجمرة الواثبة تحرق كل شيء في سبيل رضاك وسعادتك.

أخي لا تتصور مبلغ فرحي وامتناني لله عندما قرأت في رسالتك خبر توظيفك في المعارف ونشر اسمك لقد كنت انتظر ذلك أكثر من أي إنسان وبشوق ولهفة حتى تشعر بالسعادة التي تبغيها وتتوق إليها ولست ادري إذا كانت تصلك رسالتي هذه وأنت في السلمية أم وأنت في مكان تعيينك إنشاء الله.

وأرجوك يا أخي أن تدرس على البكالوريا بكل جد ونشاط في خلال عملك حتى لا تذهب إلى الجندية الإجبارية كمجند بل كضابط احتياط فإياك والدراسة إنها سبيلك الوحيد للتفوق على كل شيء بعناية المولى ولا تحتاج إلا للدراسة التي توصلك إلى ما تبغيه من راحة ورفاهية.

أخي كان بنيتي الحضور إلى سلمية في العطلة الماضية عطلة رأس السنة ولكن لأسباب لا تجهلها منعتني عن الحضور فإلى عطلة قادمة

إنشاء الله لأنني في شوق كبير لرؤيتكم ورؤية العائلة جميعاً وكل الصحاب.. فإننا هنا في حياة عملية بحتة لا مكان فيها للعاطفة والأحلام وهي حياة رجولة وعنف وضراوة.

حياتي تبدأ عندما انتهي من الخدمة الإجبارية وانطلق في الأجواء التي انسجها.

زهرة النرجس التي طويتها بين سطورك هي تشرب من قلبي. آه ما أغلاها.. إنها معي ولن تجف طالما مستها يداك الجيتاما....

ليس في معسكراتنا زهور...

خذ فؤادي زهرة فوارة بالشوق.... خذها من سطوري من نقاط الدم التي تسلمها إليك ريشتي التي تحبك مثلي وتتذكرك في القيظ وفي الصقيع.

وقد طلبت في رسالتك أن أكتب لك شيئاً عن حياتي ولا اخالك تجهلها ولا يمكنني سردها إلا عن طريق المزح والقشط وإليك فاتورة موجزة عنها.

بعد قليل سألحس على قرعتي واهرشها حتى ينبق معلاقي ثم المع البصطار واندار إلى الفرشة. واتشطلح عليها كالمهزوم من حواش القطن وفي الصباح يجعر البرظان ونستيقظ ثم يبلش أكل الهوى.... أي ثم يبلش الهزيمة من التدريب والطفيش بين المهاجع وعلى سفوح الجبال... وداعيك مثل المضيّع جحشة خالتو نلاقاها بيغني ونمالاقاها بيغني.... اعمل معروف وزت بها البحر.

ولك والله شوفتي بتفقع من الضحك وصاير بعضّ وبلبط مثل النمر الهائج أعوذ بالله أنا لله وإنا للوراء لدائرون.

واليك الآن هذا (البنام) الذي رأيته مدة ثلاثة أيام بالتفصيل وهو كفاية البنام الذي شفته هديك المرة.

شفت حالي متل متقول بدارنا عمبقرة بجزو والزاريات وها الملايكة قايمي قيعدة من الركع وبو علي حيدر عمبيوصي أم علي تعمل شوية مكدوس ومحي الدين الحكيم ومتفرع وعميلعب بيا محلا واسكندريا يا عيون الغزالات وفوزية عمبتدقلو عالانكر وبيك عميرقص عالشالعطو مثل البورحان...

وأنا شايف هيك مشفت حالي إلا ريكب حصان اخضر مثل الحشيش وقدامي أم صالح خليل بطوق الشلحة وبيدا خيرزانه ورايحا عالمرستان.

وبعدين شفت جدي أبو إسماعيل عميلعب بالسيف والترس مع عسكر حيدر ولما ضربه على راسه ووصل الصواب إلى دكة لباسه بطّل يلعب وراح يغني الله الهاتي الله الهاتي على يوسف ضربو الشوراتي.

والله يا ابن الحلال والا عمتك نفلة ريكبي عالحيط وبيدها قصب ورايحا مسندها لمثل الغزالة ووراها أبو خضر عميلعب بالأرغول.... وبيشهق ما بيلحق. وأنا بهاالشكل ضرب البرظان وجيت فايق وهون العتمة والظلام.

أخي عيسى أرجو أن تعذرني إن كانت رسالتي قصيرة أو غير وافية فما الذنب ذنبي وإنما لضيق الوقت لا غير وأرجو أن تكتب لي دائماً وباستمرار لأنك (أفضى) مني. وأرجو أن تبلغ سلامي إلى الوالد والوالدة والأخوة فرداً فرداً وخديجة وهاشم ومحي الدين وفوزية وصفية وشركاه والى بيت جدك وعمتك بستاو أجمعين.

من جهة الصورة سأرسلها عندما أتأكد من عنوانك مع شيء هام

ومن عندنا راتب خلوف يهديك آلاف السلامات وكذلك عدنان شعيب فهو يأتي لعندنا دائماً ويهديك عطار تحياته وفي الختام لك قبلاتي وأشواقي واسلم.

المشتاق

محمد

بلغ تحياتي لأسعد وبشره برسالة هائلة سأرسلها عما قريب ولا يؤاخذني على ذلك التأخير لا تنس أن تقبل زوبعة عني مئات القبلات.

١٩٥٥/١/٣٠

أخي الحبيب عيسى
تحياتي العميقة

عند هبوط الليل يحلو لريشتي أن تبكي على الورق ومع خطوات المساء المزينة بالنجوم اشتهي أن أغمرك بالقبل يا أخي... فكم هي رقيقة ليالي الشتاء الرطبة وكم اندمج بها وأنا اكتب لك بعض ما في نفسي من الحرقة والضجر لغيابك عني وما أقسى ساعات الغياب.

وها أنا في مطلع ليلة صافية اجلس بين مئات الجنود لأكتب إليك.. لأحيا معك أجيالاً وأجيال... وتختلط علي الأفكار وتتزاحم الجمل والكلمات في قلبي وعلى شفتي وجمرة الحنين الكاوية تبرق من خلال الحبر الأزرق المسكوب من دمي... ومن وراء النوافذ الزجاجية المغلقة يتهادى سواد عميق... عميق ونجوم... وقمر صغير محزّز كجفني امرأة قارسة الجمال.

والتقط الهمسات الوردية الصامتة من خلال العشب اليابس تحت الصقيع والملحة الخواطر التي رفّ لها قلبي في أيام خلت.... أبي.... أمي.... إخوتي الصغار.... كلها زهور... بعيدة عن هضابي واشم رائحتها من خلال الدروب الجائعة المدسورة تحت الغبار.... ولكنك أنت تبقى معانقاً صدري كنهر من الدم... كساقية عطر.. كخلجان من

العسل أتذوقها بحرمان شهي ولوعة مسفوحة لأنني اشعر بأنك أنت نفسي... ووجداني التائه في ظلمات الحياة.

أتراني غاليت في ذلك.... لا... لا.... إنها الحقيقة... انه الشوق الأحمر المدفون بين اضالعي انه الحنين إليك. انه الأبد الذي أتمناه سواراً أخضر يلفنا حتى اللانهاية.

لقد كنت مستلقياً على العشب الأخضر المنثور بإهمال خلف الأسلاك الشائكة وأنا اقرأ رسالتك الأخيرة التي نزلت إلى قلبي لأحلى ثمرة في الوجود... كبشرى هائلة طرزت فؤادي بحبات الفرح والسعادة اللامتناهية. قرأتها بشوق ولهفة... وبتصورات وتخيلات جمة كنت أنت بطلها ومحورها الذي يوجه حياتي وأفكاري... وكان وصفك للرحلة التي قمت بها إلى القرية ممتعاً للغاية وجذاباً ورائعاً وفيه كنت المح مأساة النضال الإنساني المتورد في ساعديك في عقلك في رُجُولِك...

كنت أنت تتألم بصمت وبدون ضجة وها هو نضالك يثمر ببسالة وشموخ فكن كما أنت قوياً ورائعاً كحبي لك واعتزازي الهائل بوجودك...

فإياك أن تضيع وقتك وفرصتك الأخيرة بذكرى الأهل والأصدقاء والبلد فليس منها إلا الحزن الذي لا طائل له.... اذكرهم بعقل الرجل الذي يشق طريقه إلى المجد بنفسه وبزنده وعرق جبينه فلا تنس عذابك الماضي وألمك الآفل فإنك ستتعود على الحياة وعصفها وتعالجها كرجل فذ لا تهمه مشكلات الحياة.... وكما وإياك التفكير بالمصروف واللوازم فإنها أشياء تافة عندما تنظر نظرة قريبة إلى المستقبل الآتي... وأنا أؤكد لك الفرح والانشراح والسعادة الآتين إليك في طريقها لأنك دفعت

الثمن وزرعت الألم وستجني الزهور والثمار التي هي حلالك وثروتك وعطلة الربيع آتية وليست بعيدة عدا عن أن العام الدراسي على وشك الانتهاء وسنتقابل كثيرا في المستقبل إنشاء الله.

وأعلمك بأنه ربما انتهت دورتنا في مدارس الرتباء في حوالي ٢٥ بالشهر الحالي ولذا أرجو أن تكتب لي الجواب بسرعة قبل حلول الوقت أو الميعاد الذي ذكرته حتى أعلمك بالعنوان الجديد واكتب رسالة مفصلة عن أحوالك الحاضرة وعن طلابك والمعلمين في مدرستك وأهل القرية وكيف تقضي وقتك وكذلك اسم القرية التي تعلم بها والتي فيها المدرسة وأنا سأكتب لوالدك رسالة بخصوص مصروفك... لأنك لا تذهب من فكري ولا لحظة واحدة فكن على ثقة أنني أفديك بدمي وروحي وكل ما لي في الحياة والوجود من الآن والى الأبد.

ومنذ مدة كتبت لك رسالة جواباً على رسالتك التي استلمتها من أسعد حافظ عندما رأيته في دمشق ولا ادري إن استلمتها أنت قبل سفرك أم استلمها اهلك... وعلى كل حال لن انقطع عن الكتابة إليك أبداً.

حياتي كالسابق تعودت عليها تدريب متواصل وعمل ونوم وذكرى وأحلام وبالأمس رأيت (زكريا) في دمشق وكان متسرح من العمل وعمبيشبط وبيلبط لحتى يرجع وما بعرف شو صار معو. مثل الهبيلة.

أمس راتب خلوف تشركل بالبارودة ونحني بصفيح الجبل وكان يجي نكس عراسو وانفكشت أجرو والحالة متوترة.... قول يا ستار.

داعيك اليوم أجرى عدة حركات رياضية من ألعاب سويدية... إلى دعكلة نحو الأمام... حتى انخلع باطي والانكله مشتغلة والحياة حلوة بس يلعن الذي صنفها.

شعر راسي قصير (هالقد) وما عميطول شوي حتى بينسفو الحلاق عن بكرة أبيه... إيه يا عيسى سأكتب رسالة لوالدك ولمحي الدين الحكيم وحرمه ولجدك أبو إسماعيل وقرينته ولستا وأجمعين.... ورسالة خاصة كبيرة لك عندما أتعرف على أحوالك بالضبط وسير الأمور عندك... وراتب خلوف يهديكم السلام.

وفي الختام يصعب علي أن أقول وداعاً يا أخي فهي قاسية كالخنجر ولكن الآهات كثيرة في قلبي ولك حبي وقبلاتي الحارة.

واسلم للمشتاق جداً

محمد

لا تنسَ الجواب السريع المفصل واذكر التاريخ في الرسالة.

ففي الرسالة الماضية لم أجد تاريخ عليها حتى اعرف (كم يوم بقت عالطريق)

استلمت رسالتك الأخيرة بتاريخ ٢٧/١/ ,٩٥٥

تحياتي للضباب والزيتون والجمال وعشاقه في قضاء ادلب.

٩٥٥/٢/٩

أخي الحبيب عيسى
تحية من قلبي

لولاك يا أخي ولولا تلك الأشعة القرمزية التي تشع من عينيك إلى صدري لما وجدت في هذه الحياة ما يستحق التفكير والعمل... فعندما أذكرك، وما أكثر ما أذكرك، أشعر بأمواج سحرية بيضاء تدفعني فوق الغيم الأبيض والثلوج التي لم تتكون بعد.... أشعر بذلك الغصن الحنون الذي يترعرع في خاطري من حبك العميق لي والذي لا نهاية له ولا حدود.

ففي كل كلمة منك وفي كل إشارة أو حرف اشعر بعمق التضحية والبذل المتدفق من أعماقك من غربتك من حياتك الجديدة النضرة.

فلرسالتك الأخيرة عمق في صدري ونوافير حمراء تتأجج صاعدة إلى جبيني الذي اشعر بيديك الجميلتين تلمسانه بحنو كما اشتاق لأن أداعب جبينك ونحن معاً لأخلص أخوين في هذا الوجود المتدرن الكثير اللزوجة والفوران...

فأنا الآن اكتب إليك هذه الرسالة والساعة قد جاوزت العاشرة ليلاً وعلى المقعد الذي وضعته بجانب السرير كي اكتب عليه هذه الكلمات المقطوفة من قلبي.... ونشرت علبة سجائر أو كبريت وشمعة صفراء

عارية تحترق بإخلاص وهدوء وعن كثب مني يشخر أحد الجنود المتعبين وقد دفن وجهه في المخدة وحذاءه قرب رأسه "والله عليم بشو عميحلم هلق".

وريشتي الصفراء اللون حبلى بهذا السائل الأزرق المتشتت بين هذه السطور وثلاثة أبواب مغلقة ونافذة مفتوحة تطل إلى مهاجع أخرى مفروشة في الظلام الكثيف الجميل.

انك يا أخي لا تعرف مهاجع الجنود.... إنها متلاصقة ومنحنية السطوح وعديدة النوافذ وفي فمي سيجارة الآن وأنا اطل من النافذة المفتوحة وقد انساب منها صوت رخيم ينشره مذياع في غرفة الضباط... تنساب منه أغنية تخز قلبي وتلهب جفني بالدموع إنها أغنية "يا قلبي يا مجروح" كانت مناسبة جداً لما يعتلج في صدري ويتكاثف في فمي من أغنيات حزينة تثقب حنجرتي وتدمي ريشتي وهي مخلصة في التعبير عن حبي وأشواقي إليك....

الأغنية كما تعلم بالغة الحرارة وقطعة صغيرة من القمر الفضي الصغير تبدو ملاصقة لحافة النافذة.

وأنا متكئ على مرفقي وشارداً اكتب.... اكتب واستخلص كلماتي من القمم السوداء البعيدة المدى فوق الثكنات من الأملاك الشائكة التي تزنر تلك البقع المثيرة من تراب الأرض وفي هذه الحياة المليئة بالألغاز والأسرار والوقائع المذعورة اجلس وحيداً أفكر بك وبحبك وبين أنفاس الجنود المطمورين داخل رقائق الصوف اشعر بحرارة الدموع اللاذعة تحرق خدي وتلسع فم ريشتي العذب الجميل وهي تقبل الورق والسطور عنك ولحبك ولجنوني الغريب بالإخلاص لك والوفاء الذي يتقد كآلاف المجامر والشموع.....

انتهت أغنية يا قلبي يا مجروح وأطراف الشمعة القصيرة أخذت تنحدر على الخشب العتيق والمتآكل وأنا ما زلت بين أمواج الحب البليغة الزرقة أتحدث إليك وأناجيك واطبع على جبينك كثيراً من القبلات التي بلون الأرجوان.... هل تعرف الأرجوان في ثكنتنا وعلى أطرافها توجد شجرة جرداء منه تشرب من أجران مستنقع اصفر ضحل... مليء بعلب السردين والقاذورات....

ومع ذلك فشجرة الأرجوان تزهر وتتفتح غير عابئة بأهوال الطبيعة المجرمة ولا بالسنك العديدة التي تخدش بشرتها الخضراء الغائمة... إنها تعيش وتسمو في الهواء الرخو المتزمت... بفرعة من لهب ونار... كحياتي تماماً... كشوقي لأن أنفذ من الحجارة والحدود المغلقة إليك لأعانقك واطوي ذراعي في ذراعك ونمرح في اطراقة طويلة فيها كل معاني الإنسانية والوجود المتكرر تحت السماء.

أغنية جديدة أتت مع وجه القمر الذي تلون على زجاج النافذة وانجرح بهدوء غريب "كل ده كان ليه لما شفت عينيه" كانت لمحمد عبد الوهاب.... أخذت الأغنية تنساب وقد اختنق الحبر في ريشتي وانتحرت الشمعة وتساقطت على الأرض كنثرات من الذهب الأملس وأخذ الحنين القتال في الأغنية واليأس البالغ في موسيقاها يجرح قلبي... قلبي الذي وضعتك فيه جرة من دم وباقة من عصافير حبيبة تبني أعشاشها بين اضالعي.... في تلك اللحظة تمنيت إلى يختزل الزمن ويتقلص كله في ثانية واحدة لأسحبك من غربتك ونجتمع وحدنا تحت المطر.... في.... تحت أضواء عديدة يطاردها غزال أشقر في السماء...

وأقص لك عن حياتي وعن أوقاتي وعن الخلاّن والأصحاب عن ذات

الشعر الأشقر الملفوف كزهرة أقحوان كبيرة عن عينيها الخضر التي تمرح فيها حقول خضراء مليئة بالسواقي التي تسكر القلب... لأحدثك عن الأفلام التي شاهدتها عن الأغاني الجديدة التي تعجبني وتعجبك عني وعنك وعن كل شيء...

آه ما أكثر الأشواق والجمرات المتقدة في نفسي... ما أكثر بوحي وأسراري التي أريد أن القيها على مسامعك يا أخي.... ما أكثر الدفئ الذي يحرق رسائلي لينبئك عن حبي الذي لا ينتهي...

ولكن أنوار الشكنة أطفئت والمذياع لوى رنّانه ونام وشمعتي ماتت على الأرض بين الأحذية ولكن عيناي ما زلت معلقة في السقف المعتم الأزرق ترقب المجهول ومقدرات الآلهة... تنتظر الفجر الذي يصنع سلالنا وعناقيدنا الحلوة لنأكلها وحيدين على ممر اخضر في بساتين الحياة الجرداء.

اعذرني إذا لم استطع الاستمرار أكثر من ذلك لأن يدي ترتجف وقلبي ولوع ودامع والحنين إليك يكاد يقتلني... وان كلمة وداعاً تغري مهجتي ولكن... الأمل هو ما نحيا من أجله.

واسلم للمشتاق.

٩٥٥/٢/٩

المخلص إلى الأبد

محمد

اكتب لي إذا كنت تريد الذهاب إلى سلمية في عطلة الربيع وعن أحوالك الجديدة بالتفصيل ومن عندنا راتب خلوف يهديكم بالغ تحياته.

متى تبدأ عطلة الربيع ولك قبلاتي... بل لك أعمق ما في وجودي من إخلاص وحب ووفاء.

الجواب حالاً

يا أخي الحبيب

وصلتني رسالتك الأخيرة والحبيبة إلى قلبي بتاريخ ٩٥٥/٢/٧

أخي الحبيب عيسى ٩٥٥/٣/١٩

تحية أعمق من الحب والحياة

إليك يا من تخطر في حياتي كباقة ورد كنهر جميل... إليك يا أخي الحبيب اشعر بحرارة الوداع اليقظة توشوش قلمي وتنساب من فم ريشتي دماً شهياً يحرق السطور... إذ بلغت درجة عميقة في الحياة جعلت أدرك معاني ضخمة وسيول باردة من الحوادث والمتناقضات.... اقرأ القصائد... وأطالع الصحف وأفتش في الكتب الصفراء ولا ارتوي أو اشبع الغريزة الحجرية التي فطرت عليها في حياة الجندية ولكن عندما اشرب كلماتك بعيني واشم روحك الذكية في الكلمات الزرقاء اشعر بدفعات ناعمة كالزهر تتفتح في كآبتي... واطرب ذلك الطرب الحزين الهائم في القداسة والحيوية.

مثلاً يوم وصول رسالتك الأخيرة كنت من الصباح اشعر برطوبة الجو السخيفة تجلّد حواسي وقطرات المطر المتداعية على الصفيح والجدران العتيقة كأنها تخز منطقة حساسة في مشاعري....

وحول لزجة حمراء.... وأقدام ثقيلة تخب في المياه الدكناء.... ومرض إنساني عنيد يرتسم على الوجوه التي تضحك سماً وتتجشأ غلاظة وبرودة.... وأنا زائغ في الجميع أدخن واربت على بندقيتي الملوثة بالماء واحن إلى شهوات ليس بمقدور إنسان أن يبلغها ثم استلقي على

الفراش بحذائي وجعبتي والسيكارة البيضاء تحترق بين شفتي.... ثم امضي إلى المغسلة لأشرب بعد أن ابصق على الحشيش النابت في الشقوق السوداء.... وحيرة ثلجية تحز قلبي حزاً كسيف قاطع... ثم أثرثر مع بعض الأصدقاء وامزح... ولكن كأن ثمة شيء أبيض يغرز ضياءه على دربي ثم جناح اخضر يرف في عيوني ثم كانت رسالتك الحبيبة المطرزة بالشوق والحنين قرأتها في ندوة الجنود هادئاً أدخن سيكارتي وأنا المح ظلك الأشقر الصغير يطل علي من وراء الطاولة من بين التلامذة الصغار في قرية جميلة قرأت رسالتك بهدوء وعطش فذ وشعرت بتلك الألوان الزهرية ترقص في الدخان المتصاعد من فمي وجلست للتو اكتب لك الجواب وفي صدري ملايين السواقي العاطفية والحب الأخوي الهادر كالطوفان وثمة جنود حليقوا اللحى يلعبون في كرة الطاولة وجندي آخر حزيناً أكثر من اللازم يشرب قدحاً من الشاي وهو مطرق في الأرض....

من الناحية الاقتصادية والمالية أقول وأصيح مليان صوتي...

أخي جاوز الدائنون المدى فبعد يومين والله سأكون ملحدا

وختاماً أخي اطبع على جبينك ألف قبلة وأمد يدي إلى يدك لنشعر بعناق الروح ولو كان الدرب الطويل وبيني وبينك مسافات بعيدة فإلى اللقاء في الرسالة القادمة.

واسلم للمشتاق جداً

محمد

وصلتني رسالتك الغالية بتاريخ ١٦/٣/٩٥٥

أخي الحبيب عيسى

وداعك الأخير جرح قلبي يا أخي وعلمني أغنية حزينة تذوب على شفاهي التي ما عرفت معنى الابتسام الذي أريده... لقد افترقنا وكان ذهولي شديداً وأعماقي تجلب حرارة كاللهب البعيد.... إذ لا أراك الآن... إذا لا أراك يا قلبي الصغير الراحل.

وان كنت تلاحظ صحتي عندما نكون مع بعضنا فهو أنني أكون في اعنف مراحل السعادة والجمال... يكفيني أن أراك... أن أحيا بلغة الصمت التي هي ارفع وأقدس ما تنتجه عواطفي البريئة تجاه إنسان أحبه من كل قلبي.

انك أنت الذي أحبه لا غير وهذا شعوري الحقيقي الأمين.

أخي... لقد رجعت إلى الثكنة وبدرني ذلك الشعور الجارف بالقلق والحرمان... رجعت لألقى الوجوه الغريبة التي لا أحبها والآفاق المظلمة الباردة لا تعرف النور والضياء...

رجعت لأسطر قصة حياتي العجيبة بالدم والحنين... وان اقتات على الذكرى والماضي الذي يزهر في حياتي أزهاراً صفراء مرة كالعلقم... ولكنها زهور وما أتعس ذبولها بين يدي... يدي التي ما وعت الزهر والعطور إلا عندما فات الأوان...

آه يا أخي كل شيء يذكرني بك وبإخلاصك... وما أجمل هذه الذكريات على قلبي ويكفي أن تكون أنت بطلها وينبوعها الأزرق الصافي...

كلما سمعت أغنية جميلة أتمنى أن تسمعها... وكلما حدثت نكتة اشتهي أن أراك غارقاً في الضحك لأجلها... في كل لحظة أتمنى أن أراك سعيداً وسعيداً إلى الأبد.

ولكن عند (ما بينشف ريقي) من التدريب لا أريد أن تكون معنا.

رجعت ريمي لعادتها القديمة قويسات ورياضة وألعاب بتفقع المرارة ولكن أخبرك بأن راتب خلوف قد انتقل إلى سلاح المدرعات ولذا فهو قد ترك فراغاً في نفسي لأنه مخلص...

أخي عيسى اعذرني على هذه الرسالة القصيرة لأنها بصورة مستعجلة حتى لا تقلق بخصوص مراسلتي وسأوافيك برسائل أخرى قريباً إنشاء المولى واكتب إلي دائماً يا أخي ولا تنس أن تكون الرسالة طويلة (ومترّخة) أي ضع التاريخ عليها.

وفي الختام لك قبلاتي وأشواقي يا أخي الحبيب الغالي.

٩٥٥/٣/٧

المخلص والمشتاق جداً

محمد

أخي الحبيب عيسى
التحية

استلمت رسالتك المؤرخة بتاريخ ٥٥/٣/٢٨ في يوم الأحد الواقع بتاريخ ٥٥/٤/١١ ولا تستغرب هذه المدة فأنا لم استلمها عندما وصلت إلى مدرسة الرتباء لأنني أنا الآن في مستشفى المزة لا لمرض أي شيء مخطر... لا لا يا أخي لا تفكر وإنما دخلت المستشفى لإجراء عملية لجفن عيني اليسرى حيث دخلت المستشفى بتاريخ ٥٤/٤/٥ وللآن لم تجري لي العملية وأنا بانتظار يوم الأربعاء المحدد للعمليات.

أنا مبسوط جداً والحمد لله لا تفكر مطلقاً واعذرني إذا كان الرسالة غير (مهندزة) لأنني اكتبها بقلم حبر فابر آخر زمان.

والآن لنعد أنا وأنت إلى الاحساسات والخلجات... لقد كانت رسالتك نبع أحمر يسكر القلب... فياضة متدفقة كالسيل... وحياتي كما تعلم لزجة ومليئة بالغبار والهواجس يطهرها السيل يصقلها النبض الأخوي الجارف... إنني أقف الآن في خضم الحياة التي أعالجها من قساوة.... عنف الزمن وقساوة التاريخ...

الآلام والهواجس القاتلة والضنك الجرثومي الشره أصبح دخان يتصاعد من فمي حرقته ومزقته وها أنا ارقص على أشلائه كالسكران

وكم تدخل كلماتك إلى أعماقي وتنحل في كأسي شهية نقية كالخمر كالنبيذ الذي يترجرج في كأسك يا أخي الغالي... أنا الآن في شرفة المستشفى ودمشق الناصعة البياض تلوح أمامي عبر الحقول والجبال الزرقاء... وثمة أنوار وهاجة ابتدأت تلمع في رؤوس القصور والعواميد وأشجار الصنوبر الكثيفة تغني مع الهواء الآتي من وراء التلال.

سيكارتي في فمي وريشتي تغرز روحها ولعابها على الورق وزفراتي الحارة الكاوية تعصر الزمن والمجهول في قلب يحبك ولسان لا ينطق إلا بذكرياتنا معاً يا أخي.

وكم سررت بالبشائر التي وردت في رسالتك وكم أحس بالفرح يغمرني عندما المح قطرات الطرب والسرور تنسال في رسائلك...

لا بأس من شراء الراديو يا أخي فهو ينبوع خيال وعاطفة منه نسمع آه لو كنت معي... ومنه نسمع يا قلبي يا مجروح ومنه تزغرد حنجرة إلهية في الصبر والإيمان... وأنا من ضبع في الأوهام عمره.

آه يا أخي عندما أكون في المعسكر والظلام مخيم على كل شيء واسمع أي أغنية أو قطعة موسيقى اشعر بأن قلبي ينجرح وأذكرك بلهفة وشوق وإخلاص.

ملاحظة: لا ترسل جواب هذه الرسالة حتى أوافيك برسالة أخرى أي بعد خروجي من المستشفى. أي ربما تضيع الرسالة في مدرسة الرتباء بغيابي.

إنني لم أرى راتب منذ أن افترقنا وسأبعث إليه رسالتك فوراً...

أخي إذا وجدت (ستيلو) مثل الخلق والعالم سأكتب لك رسالة

ممتازة جداً فهذه الرسالة (تلحيقة) لأنه عندي كثير من الأشياء والحوادث أريد أن اعبر لك عنها فانتظر الرسالة القادمة.

وداعاً يا أخي الحبيب الغالي والى اللقاء في القريب إنشاء الله....

أخي عندما أرى سلوى في الطريق بدمشق اشعر بأشياء هائلة ودوار مميت يسحق وجودي لأنه هو وجودك...

وقد كتبت بهذا الخصوص مقطوعة رمزية تعبر عن شعورك تماماً نحوها وسأقرأها لك عندما نلتقي... وما أجمل لقيانا.

٩٥٥/٤/١٢

واسلم المشتاق جداً

محمد

أخي لا بأس بأن تحضر أمك لعندك حتى (تشم الهوا) وتسليك.

آه كم هي حنونة وتحبنا يا أخي.

وإنني سأكتب رسالة اليوم إلى الوالد واسعد حافظ وراتب اخبرهم بدخولي للمستشفى وحتى لا يرسلوا لي تحارير حتى أرسل لهم خبراً عندما اخرج من المستشفى إلى المدرسة.

أخي الحبيب عيسى

نريدها رسالة أم أغنية شجرة حنين تغتسل في الضباب... فحنجرتي تنبض بالأغاني تجيش بالذكريات الملونة كدمى الأطفال.... أأغنيك يا عيسى أم أبعثر قلبي حطاماً بين السطور على الحبر اللذيذ الممتع... لست ادري فأنت قلبي وغنائي.

مع الليل وفي مطلع المساء المتلصلص من عيون الصنوبر أذكرك أعيش دهراً كاملاً من الصمت حيث تنبع ذكريات تنمو وتخضر كأوراق الحنطة كفساطين الربيع المبلولة في الأحزان... ذكرى وجهك الجميل الصامت وقد لاح لي في ظلمة كنت اقتات منها ألوث عيني بعطرها الزنخ المريض يا لتلك النظرات يا لقلبي الذي بكى ليالٍ بعدها... والوردة البيضاء المقطوفة لأجلي لقد ذابت وجفّت عروقها على صدري.... عشت معها مع أعصابها التي تناثرت في الظلام وأنا حزين أتيه في سحابة من الأمل والتبغ والبكاء.

أنت أكثر من أن تنسى يا عيسى أنت لي كل شيء... أنت خيالات الحب المشرنقة بين اضالعي انسج حولها تنورة إخلاص جميلة وشال من النسيم الراحل بيننا عبر مسافاتنا الطويلة... يا لطول الزمن. إنني لا اعرف ماذا اكتب أين اكتب الحبر أين اجرح الكلمة واترك الدمعة تبرق كالصباح كامرأة عارية... ضائع... ضائع الشام وأضواء المدينة وأنت لقم تأكل منها

ريشتي تتغذى تمصمص من عيوني دموع الهوى. أنا مشتاق يا عيسى.. صدري فارغ وخطواتي كئيبة على الرصيف وحيدة كطائران غريبان..أذكرك وأعيش مع أحلامنا سهرات عديدات مع القمر والصبايا والتنهدات.

أريد أن اكتب كثيراً أن أنشدك كل ما عندي ولكن في الصمت في الجفا اشبك جفوني بأعمق الذكريات تتنسم شفاهي أحلى ما برعمت زهور الشوق في الغابات ولكن حيالك تلح أعصابي تتفتح عيوني ولا تنام لأنني مشتاق وأريد أن اقرأ في وجهه الحنون أكثر من رسالة وأكثر من سحابة عواطف...أريد أن أصافح أكثر من أخ في يدك الصغيرة التي قالت مرحباً وقالت وداعاً أتذكر يا عيسى أن قلبي مليء بالذكريات.

أخي لقد استلمت كل رسائلك السابقة وكذلك صورة نعمت مع صورتك وان علاء الدين يهديك السلام وأعلمك أنني لا أستطيع الحضور لطرفكم ولذا أرجو أن تحضر لطرفنا في عطلة الربيع وأعلمني برسالة عن اليوم الذي ستحضر فيه حتى انتظرك وعندما تحضر إلى دمشق اذهب رأساً إلى بيت عمك خضر حيث اذهب للقياك إن لم أكن هناك.

وختاماً لك قبلاتي الأخوية. وأشواقي الحارة.

١٩٥٦/١/٢٢

المخلص

اكتب الجواب على الشكل التالي:

قيادة موقع دمشق- ب. ع. ٩٠

إلى العريف محي الدين نصره.

أخي الحبيب عيسى

ساعات طويلة قضيتها وأنا ألُم العطر من رسالتك... أسرق جفون الياسمين من حروفك... لي تلك العطور... لفراشي مخدات الياسمين... لقلبي الذي يغني كصفصافة جرداء قرب النهر.

فاعطني تبغاً وليلة مقمرة لأثرثر لك عن الليل والشوارع والبغايا فأنا إنسان حبر وورق وآهه.. أحدثك عن نوافذ الرخام المتلألئة في حضن قاسيون والعربات القابعة تحت المطر فأنا أحب التجوال والسير أمام المقاهي ودور السينما... فجمال بلادي عظيم بلادي التي يسيل من نهدها حليب الأرجوان...

مع بردى أسير... مع أناته الحنونة تحت الجسور ودموعه التي تتوزع على البيوت والجوامع.. على بلاط الأزقة العمياء...

لي مع الورود المهجورة قبلة عند الصباح... وفي غابات الزيتون المتجمعة كأطفال يتامى قصيدة وموجة قُبل.

أنا إنسان حبر وورق وآهة من الماضي.. من الطفولة التائهة في الطين... أتعرفها طفولتي يا عيسى؟؟ سأهديك سنة منها تحدثك تقول لك عني أنا أخوك... غيمة شديدة الاصفرار... نشوانة فوق الربى... تفكفك أزرار القمر.

طفولتي... غريبة وممتعة كشاطىء من السفن المعبأة بالخمور

كانت... جوع وحرمان وشتائم... كنت مهرجاً ألا تذكر... أبيع البطالة والتشاؤب أمام الدكاكين.... ألعب الدحل.. وآكل الخبز في الطريق وفي ليالي الشتاء الطويلة كنت أنظم الشعر أخبط كالمجنون في...

في باحة الدار... وكانت واسعة تنام مع الريح... والمطر وأصوات القباقيب.

كنت اشتهي.... منضدة وكرسي من الخيزران لأستريح لأشوي الكستناء في المدفأة... وأنت تجلب لي السجائر والمغلفات وتشتري الخس لأخوتك الصغار... وكان أبي لا يجني كثيرا يضربني على قفاي ويشتمني في السوق وبين المنازل المتسلخة كالديدان... اسأل ليالي الشتاء ومطر كانون الحزين.

ولذا فإن حبك في قلبي منذ الطفولة اغذيه اهجر شبابي فداه... لك حبي يا عيسى... وكل ما أستطيع.. ولكن حتى القلم يخونني. إن رأسي مليئة بالأفكار ولكني لا أستطيع العواطف تنهال أمامي كأوراق الحنطة المذهبة كشلال من العصافير.

أخي لقد سررت جداً بزيارتك المقبلة وإنني انتظرها بفارغ الصبر وأنا مبسوط جداً لأن اهلك بخير وأنا انتظر جواب هذه الرسالة بفارغ الصبر يجب أن تكون طويلة ووافية وكل من بطرفنا يهديك السلام ولا أقول لك كم أنا مشتاق فسأترك ذلك للقاء المقبل وختاماً لك حبي وأشواقي الحارة.

٩٥٦/٢/٤

المخلص

العنوان: قيادة موقع دمشق- العريف محي الدين نصره
ب. ع. ٩٠

أخي الحبيب عيسى
تحية عطرة وبعد

عندما استلمت رسالتك الأخيرة... شعرت بأميال شاسعة من الحنان والشوق تتوغل داخل الكلمات وسررت كثيراً بذهابك إلى سلمية وبأخبار الصغيرة نعمت الحلوة وإخوتك وجميع العائلة وكم أنا مشتاق لك وللجميع ولكنني كما أخبرتك سابقاً لا أستطيع الذهاب إلى سلمية الآن ويا ليتني أستطيع وكنت أأمل أن أراك في دمشق كما وعدت ولكنك لم تأت يا عيسى. ولذلك فإنني انتظر عطلة الربيع حتى إذا تمكنت من الحضور إلى سلمية فنقضي أيام العطلة مع بعضنا وإذا لم استطع سأخبرك لتحضر لعندي... لأن فترة الفراق قد زادت... وزادت كثيراً واعذرني إذا كانت هذه الرسالة عادية كأغلب التحارير فالسبب في ذلك أنني أجاري الصديق العزيز راتب خلوف الذي يجلس قبالتي على الطاولة في المقهى وهو يكتب تحرير لأهله ولذلك فإنني استعمل أسلوبه العادي في الكتابة ولو أن هذا العذر غير مقبول كثيراً إلا أنني راكد الآن رغم الأشواق الصاخبة التي تقرض أعصابي ولكن إنشاء الله في الرسالة القادمة سأكتب بكل الحرارة التي أعانيها بكل القطرات الدامية التي تنسكب من فؤادي فؤادي الحزين الذي يضحّك... ويضم كل طيب

ومخلص... وأقول لك أن في رسالتك الأخيرة كانت أشياء وجمل تجرح القلب... جمل رائعة ولفتات لطيفة حلوة تذكرني بالأزقة وشروق الشمس وراء الغابات والطين الأحمر السميك أمام البيوت... تذكرني بأخوتي وأبي وأمي... في المساء وفي الصباح وطيلة النهار ونعمت الحلوة كالقمر الأشقر تلهو تحت شجرة التوت أو تتسلق المصطبة... تذكرني بأبي الطيب وأمي الحبيبة وأنت... بالذكريات الحلوة أمام المذياع وسهراتنا على لعب الورق بحماس شديد... إنني اذكر أشياء جمة... أحسها... أعيش عليها... وأجمل ما في الحياة... الذكريات ولكنك يا عيسى لم تذكر لي في رسالتك أي شيء عن خديجة وسلام وهاشم... سلام تلك الطفلة التي عرفتها صغيرة... صغيرة كوردة من حليب لم تذكر لي شيئاً عنها . أرجو أن تخبرني عن أحوالهم جميعاً... أما من جهتي أنا فالشكر على كل حال مبسوط اقضي أوقاتي في القراءة أو في النزهات بعد الدوام ولكن حنيني إليك لا يتغير مطلقاً وسنلتقي قريباً إنشاء الله وبخصوص راتب فهو يهديك خالص تحياته وهو مشتاق لك كثيراً ولقد قضينا يومي الخميس والجمعة مع بعضنا وختاماً لك قبلاتي الأخوية.

٩٥٦/٣/٣

المخلص

أخي الحبيب عيسى دمشق في ٩/٨/٩٥٦

تحية قلبية وبعد

لقد وصلتني رسالتك من علاء الدين وقد سررت بها كثيراً ولكن المهم هو سروري المتزايد بنجاحك. لقد كان شيئاً هاماً في حياتي شيئاً له إحساس عميق في الفراغ الذي يكتنفني إذ أنني أتحدث عنك في كل مناسبة... أو لشد ما أنا مسرور يا عيسى...

ومن ثم كان في نيتي الحضور لطرفكم وأنا مشتاق جداً لذلك ولكن لظروف قاهرة لا أستطيع الحضور في هذا الوقت وخصوصاً صديقي (الطفر) يلازمني مثل - التيبعه - لا يفارقني أبداً ولذا أرجوك الحضور لعندي فهناك أشياء كثيرة سنتحدث بها وخصوصاً بعد نجاحك الموفق ومن ثم لنتباحث بقضية مستقبلك إذ برأيي أن تدخل الجامعة لأنها اضمن شيء وأمتع... فالحياة الجامعية لا توصف يا عيسى. ثم لندبر- ساعة نافارا- للوالد إذ هي اقل ما يمكن أن تقدمه لهذا الأب العظيم . أليس كذلك يا عيسى.

ولذلك أرجو أن يكون جواب هذه الرسالة هو حضورك لعندي حيث سنقضي بضعة أيام فما عليك إلا أن تحضر لبيت عمك خضر ومن ثم تأتي أنت وعلاء الدين لمواجهتي...

فإياك أن تتأخر إذ لا أريد رسائلاً بل أريدك أنت.

ومن ثم كيف الأهل جميعاً وخصوصاً نعمت وسلام لهم قبلاتي وتحياتي ومن عندنا كثير من الأصدقاء يهدونك السلام. وختاماً لك قبلاتي.

ملاحظة: إذا لم تتمكن من الحضور في الوقت الحاضر لأسباب مقنعة اكتب لي رسالة لبيت عمك خضر واني لا أقبل عذراً ولا تنسى أنني في غاية الشوق والطفر والحمد لله. ولا يحمد على مكروه سواه.

المخلص

محمد

أخي- أيها الساكن في قلبي دمشق ٧/٣/٩٥٧

كنت أود أن أبقى صامتاً أن لا انفجر واكتب.... إنني طافح بالحروف والعناوين الدامية ولكني احبك أكثر من الحب وعواء الجماهير المفتوحة الأفواه منذ الأبد لأنك أكثر الناس معرفة بي وأشدهم التصاقاً بحياتي... ولكن رسالتك الأخيرة كانت مفتاح القلب المسجى تحت المطر منذ شهور.... قلبي الذي ينوح ولا يموت....

وان تعبيرك عن فوران البؤس في العالم والأصقاع المليئة بالوجوم والنواح البشري هو نقطة الارتكاز الضائعة من حياتي في هذه اللحظات وبالأمس والآن... والأشجار العارية البنية اللون تتقصف وتذوي... القلق ذو الأظافر الطويلة الجارحة يستيقظ في قلبي أنا الذي يستلقي كالوردة القرمزية على شفاه الناس.... شاعر وطريف ووحشي ذلك الذي يقبع وراء نافذة هوجاء حيث الشاعر العظيم يحدق في الجدران وأطياف الخمر والأثداء الكبيرة الرخوة....

وتسألني عن حياتي الأدبية... والأدب عندنا حكاية تروى على طاولة وحوار خليع وراء أنثى ضالة في الشوارع... الأدب عندنا يا عيسى تغطية عاهات وفن طباعة واستيراد عواطف وأحاسيس من منخفضات غريبة... هل قرأت قصيدتي الأخيرة "جفاف النهر" إنها أكثر

من قصيدة... جيل كامل من الحرمان والبطولة والشوق إلى النعاس والحب والشهوة... قرئت بصوت مرتفع في المقاهي ونوقشت في ندوات أدبية كثيرة وقالوا رائعة... يا عيسى... هذه الرائعة تدخل إلى قلبي كرأس خنجر... كلمة واحدة لشيء لم يسبق له مثيل والطبول الكبيرة لما يجهضه الأقزام والمشوهين...

إنهم يشعرون بأنني في القمة وهم في الحضيض القمة التي هي بنظري بداية الطريق وأول الصفحة إنني لم اكتب شيئاً مما اهيؤه...

سأكتب أشياء لم تحلم بها عذراء ولا أمه ولا بلاد أخرى...

عفواً لقد استرسلت كثيراً ولا أود أن أودعك... إن فراقك حتى الورق يجرحني في الصميم ولكن الدمع يغشى البؤبؤين الأزرقين.

إنني لم انس الأهل والأقرباء ولكن حياتي ومشاعري البعيدة الغموض هي السبب فبلغهم تحياتي وقبلاتي كما وأعلمك بأنني الآن اسكن وحدي في غرفة جميلة بعد أن انفصلت عن ابن خالك محمد حيث لا أستطيع الاستمرار معه كما تعلم وأرجو أن يكون جواب هذه الرسالة حضورك إلى دمشق لأنني بحاجة إلى رؤياك جداً حيث إنني سأنتظرك وتجدني مساءً في مقهى الهافانا فما عليك إلا أن تضع لي خبر وصولك هناك. والى اللقاء.

المخلص

محمد

أخي العزيز أبا نوار *دمشق ١٩٦٨/٨/٢٨*

تحياتي وأشواقي الحارة

يجب أن تكون واثقاً كل الثقة من أن شيئاً ما في هذه الحياة لا يمكنه أن يبعد ذاكرتي عنك وعواطفي ومحبتي القلبية تجاهك. وإذا كنت مقصراً في الكتابة إليك، فهذا لا يعني سوى أنني مقصر في أشياء كثيرة من الناحية الشكلية فقط، وهو أمر لا يؤرقني كثيراً ما دامت الكلمة الأولى والأخيرة للقلب.

إنني احن إليك وللأولاد كثيراً، وعزائي هو ما اسمعه من أخبار عن نجاحك في العمل، وعن سعادتك في البيت، أما بالنسبة لموضوع السفر إلى سلمية في النصف الأول من أيلول القادم، فلا يمكنني الجزم بما إذا كنت أستطيع السفر أنا وسنية أم لا! لأنها حامل، وصحتها غير مشجعة في هذا المجال حيث هي دائماً تعاني من الدوخة والحرارة الخفيفة. وعلى كل حال إذا زالت عنها هذه الأعراض، فلربما كان بإمكاننا السفر، وقضاء بضعة أيام مع بعضنا في ضيافة الأهل.

إسماعيل سيسافر في إجازة بعد يومين على الأرجح، ونحن نراه باستمرار، وهو في شوق دائم إليك، وما يمنعه من السفر إليكم هو قلة الاجازات.

مشاريعي الأدبية كما هي: ضائعة بين الشعر والمسرح، وأرجو أن أتمكن من طباعة ديوان شعر جديد في الشتاء القادم.

وختاماً لك ولفريدة والأولاد... أطيب التحيات والأشواق والتمنيات بالنجاح والصحة والسعادة مني ومن أم احمد سنية.

أخوكم

محمد

ملاحظة: ربما انتقلت قريباً إلى بيت جديد اكبر من بيتي الحالي وسأكتب لك العنوان الجديد في رسالة مقبلة.

أخي الغالي أبو نوار　　دمشق ١٢/٢/١٩٧١

بعد هذا الانقطاع الطويل عن الكتابة إليك أحب أن أؤكد لك بأن مكانتك العظيمة في نفسي لا تحتاج إلى أي تأكيد، انك لصيق بي كالشجرة ولحائها فلا تذهب بك الظنون ولا تأخذك الاجتهادات إلى غير هذه الحقيقة. ففي كل ما اكتب وما اقرأ، وفي أدق الثواني واللحظات التي عشتها وأعيشها سعيداً أو كئيباً، مسافراً أو مقيماً كنت شريكي... ورفيق ذاكرتي... إن كل وجودي منذ افتراقنا الطويل يرتكز بكل ثقله وتشعباته على شيء واحد اسمه الطفولة... وأيام الطفولة، وأنت تعرف جيداً انك جزء من هذه الطفولة... والنصف الكامل لتلك الأيام. بل وأكثر من ذلك، إن مجرد شعوري بأنك "أخي" يملؤني بالاعتزاز والفخر، ويضفي على حياتي المتقلبة الهجينة نقاءً وطهراً هما اعز ما اطمح اليهما بعد ربع قرن من الكفاح وسط السراب والآمال الخادعة. فإياك ثم إياك أن تفكر ولو للحظة واحدة ومهما تباعدت المسافة بين الرسالة والرسالة بأنك منسيّ. وانك تبعد عن قلبي، أو تتراجع إلى المراتب الأخيرة مَن ذاكرتي أبداً أبداً، المشكلة كلها إن من أحبهم أعمق الحب هم أولئك الذين أحبهم بقلبي وليس بقلمي.

اعرف أن حياة العزلة في القرى الصغيرة تؤدي إلى الأحزان

والتخيلات الكبيرة. ولكن تأكد بأنني كثيراً ما أحسدك على عزلتك هذه... ولكي اشرح لك عذابات القلب الكبير في القرى الكبيرة... تلزمني أعصاب لا املكها وكلمات لا طريق لي إليها.

من عادتي بعد كل ديوان جديد ارتاح من الشعر وآلامه... فترة من الوقت. إلا أنني ونتيجة لتبعات مالية لا فكاك منها، تراني مضطراً لمتابعة الكتابة ومعاناة الآلام الذهنية والروحية بما لا طاقتي لي به. إنني مشغول في القوت الحاضر بكتابة "قصة وسيناريو وحوار" فيلم سينمائي لمحمود جبر، وقد أنهيت القسم الأعظم منه بالإضافة إلى عملي الروتيني في المجلة والذي يلتهم قسماً كبيراً من وقتي. وماذا تظن النتيجة بعد هذا الجهد، وهذه الأوقات التي تذهب في الشعر أو السينما أو التلفزيون أو بالاحرى ما هو المردود الحقيقي؟

لا شيء... سوى الحنين إلى الطفولة القديمة وحرمانها وفي أحسن الحالات الحنين إلى حياة هادئة في قرية صغيرة هادئة كالتي تحيا فيها.

وختاماً لك ولأم نوار وشهرزاد ونوار وسهير حبي وأشواقي.

أخوكم

محمد

سأرسل لك نسخة من كتابي الجديد مع حسان عطوان قريباً.

دمشق ١٩٧١/٦/١

والدي العزيز

تحية قلبية وبعد

وصلتني رسالتك الغاضبة فتأثرت بها إلى أقصى حد ولكن تأكد أنني لست بحاجة إلى تذكيري بأنك متضايق من ناحية المادة ومن ناحية البطالة. وكل مشكلتي أنني لست ميسوراً من الناحية المادية بل وربما كنت متضايقاً مثلك وأكثر. ليس لي إلا راتبي فقط لا غير وإنني ابدأ بالدين منذ أول الشهر تقريباً على الشهر يليه. هل تظن أن معي مصاري ولا أرسل لك؟

يصلك خمسين ليرة وأرجو أن أتمكن من إرسال مثل هذا المبلغ كل شهر وأتمنى لو كانت أحوالي المادية جيدة أكثر لأرسل لكم أكثر.

كما أرجو أن تخففوا من الزعل والمقت لمثل هذه الأسباب ولن نقصر أبداً في مساعدتكم.

إنني مشتاق لكم وللوالدة الغالية والعزيزتين ليلى وأميرة اشد الاشتياق وسنية تهديكم جميعاً أطيب تحياتها وأشواقها.

ولدكم المشتاق

محمد

عزيزي *أبو نوار* دمشق ١٩٧٢/٥/١٠

تحية قلبية

لأن الكتابة لمن أحب تؤلمني أكثر مما تعزيني، تراني مقلاً في الكتابة لك وللأهل بصورة لا اغفرها لنفسي، زد على ذلك أنني أمرّ منذ شهور بمحنة مادية قاسية تكاد تفقدني صوابي بحيث لم اعد قادراً على الكتابة أو القراءة. وإنما اغرق في الأحلام كأي مراهق غرّ.

كنت في السابق اكتب بعض البرامج والتمثيليات للإذاعة أو التلفزيون وأتلقى تعويضاً مادياً معقولاً فوق راتبي، وكنت في تلك الأثناء لا ابخل على الوالد والأهل بشيء، كنت أرسل إليه الحوالات البريدية دون أن يطلب، ويبدو انه من الصعب عليه تصور إنسان آخر يقع في ضيق مادي سواه.

أما الآن ومنذ سنة وأكثر لا اكتب شيئاً لا للإذاعة ولا للتلفزيون كما أن سنية تركت وظيفتها منذ أكثر من سبعة شهور ولذلك فكل شيء قائم على راتبي الذي لا يبقى منه اثر بعد ثلاثة أيام من قبضه.

كما أنني أجريت مؤخراً عملية استئصال لوز ومعالجة مضنية لأذني اليسرى مما كلفني ما لا يقل بمجموعه مع الأدوية والاستشارات الطبية

وسواها عن تسعمائة ليرة سورية استلفتها بمجموعها على راتبي. بالإضافة إلى مداواة سنية المزمنة بسبب انقطاع الحمل حتى الآن.

فعندما تضيف كل هذه المتاعب إلى الألم الذي تسببه رسائل والدك إليك أو إلي فيما يتعلق بإلحاحه العجيب على طلب المساعدة تمتلىء كل ذرة من ذرات روحي ووجودي بالألم والعذاب.

إنني بالطبع لا أستطيع أن اشرح له أن مهنة الكتابة ليست كالنجارة أو الحدادة استعمل المنشار، أو انفخ بالكور ساعة أشاء وأنجز عملاً اقبض ثمنه.

لا أستطيع أن اشرح له أنني أنهكت طوال السنين الماضية من كثرة ما كتبت وما عانيت في سبيل الكتابة.

وإنني الآن أمر بمرحلة خواء كامل في الأفكار وعسر مضنٍ في التعبير رغم فوران المشاعر والأحاسيس. وإنني انتظر بفارغ الصبر أن تزول عني هذه المرحلة الصعبة كي أبدأ من جديد.

ولا أجد أحداً سواك يستطيع أن يضع الوالد في هذه الصورة. إنني لا احتمل إلحاحه، لا احتمل كونه بحاجة أبدية إلى المساعدة وان يتحول بكل حنانه وطيبته وعجزه إلى مجرد رسائل متلاحقة نحو دمشق أو نحو الطبقة تحمل ذات النغمة وذات الجمل منذ سنين وسنين في طلب النقود. فمهما بررت له لا يقتنع. ولا يتصورني إلا حاوياً أقول للحجر صيري مالاً فتصير لمجرد أنني اسكن في دمشق والصحف أو المجلات الأدبية تنشر صوري أو تذكر اسمي.

كنت عاقداً على الأمل على مسرحية كتبتها في السنة الماضية وهي بعنوان "المهرج" فرغم أنها ظلت تعرض على المسرح في بيروت طوال

أربعة اشهر متوالية ولاقت نجاحاً لم يعرفه أي عمل أدبي من قبل في الوطن العربي بأسره، إلا أن منتجي المسرحية لم يكونوا صادقين ومخلصين معي من الناحية المادية حيث لم احصل من الجمل على أذنه... كما أن هناك إحدى دور النشر في بيروت تعاقدت معي على طبع جميع مؤلفاتي في مجلد واحد وهي خمسة كتب. ثلاثة دواوين شعرية ومسرحيتان وذلك خلال السنة الحالية، وبمجرد أن يباشروا بالطبع سيدفعون لي سلفة على الحساب. ولذلك مجرد أن اقبض ولو مائة ليرة سأبعثها إلى الوالد فوراً. ولذلك أرجو مهما كانت أحوالك وظروفك... وبالرغم مما تقدمه للأهل من مساعدة مستمرة، أن تبعث إليه بأي مبلغ كان نيابة عني، وسوف أرده لك أثناء زيارتك القادمة لدمشق إنشاء الله.

أما بالنسبة لعدم وصول المجلة لك، فهذا راجع إلى عبقرية الموزعين عندنا. على كل حال سأؤكد عليهم مرة أخرى وستصلك المجلة إنشاء الله. وإنني بانتظار زيارتكم القادمة لدمشق وأرجو أن يكون نوار قد عَقِل بعض الشيء. وإلا كان الله في عون الطبيب الذي سيزيل له اللوز، والمستشفى الذي سيحل فيه.

وختاماً لك وللعائلة جميعاً أطيب تحياتي وأحر أشواقي.

محمد

عزيزي أبا نوار　　دمشق ١٩٧٣/٧/١

ربما يهرم فيَّ كل شيء إلاّ الكلمات لأنها جزء من مصيري إذا لم تكن محوره من الأساس: لكنني أدمنت التردد منذ زمن بعيد في استعمالها للتوكيد على عاطفة لا يرقى إليها شك تجاه من أحببتهم وأحبهم كل الحب وأنت في طليعتهم بلا جدال. لكني مع ذلك غارق في دوامة الحياة اليومية بحيث يختلط أجمل ما احلم بكتابته شعراً ومسرحاً وسواء بأتفه ما يتطلبه مستوى المعيشة المرتفع من جهد ونشاط لا نتيجة من ورائهما... بالمناسبة إنني اكتب الآن مسلسلاً لدريد لحام... ومنذ أول نيسان حتى الآن لم اكتب سوى حلقتين مع أن الاتفاق كان على تسليمه ست حلقات في أول تموز الحالي.

إن فكرة السفر لزيارتكم وجيهة وجديرة بالتنفيذ دون إبطاء لكن كون شام لم يكتمل نموها بعد ولم تلقح حتى الآن، يجعل الأمر صعباً، وهي طفلة جديرة بكل حماية لأنها... أكثر من جميلة. ويجب أن ترى لا أن توصف.

زارتنا أميرة لبضعة أيام، وهذه المخلوقة الحلوة تحيرني، فنصفها طفلة في المهد، ونصفها الآخر عجوز على العكاز. ما يحيرني ويقلقني أكثر وبشكل جدي هو صحة ليلى لست مطمئناً إلى هذا الالتهاب

المستحكم في الأنف والأذن والحنجرة.

سمعت أن صحة نوار في تقدم مستمر بعد عملية استئصال اللوزتين، وانه أصبح مهذباً ولا "ينطح" بتلك القوة عند المصافحة. أما بالنسبة لسهير فنقترح إجراء عملية لها وهي استئصال جزء من اللسان، لأنه أطول من حاجتها بكثير.

وختاماً لك ولفريدة وشهرزاد ونوار وسهير أطيب تحياتي وأشواقي.

مع سلام خاص من سنية وشام.

أخوكم المشتاق

محمد

عزيزي أبا نوار　　دمشق ١٩٧٥/٢/٢٢

تحياتي وقبلاتي

ما تعانيه من جفاف الحياة في الريف أعاني أضعافه ولكن من جفاف الحياة في المدينة. ومن المؤكد انه لكل منا أسبابه ومبرراته.

في الحقيقة ما يحلم به كلانا ليس موجوداً بمعناها الحقيقي، سوى في المخيلة لأن ما نقاسيه سيظل كما هو بغض عما إذا كنا نجلس في صالون فخم أم على الطين في غرفة ريفية متداعية. المهم الجوهر وليس الإطار. إنني لا أثبط عزيمتك وأنال من معاناتك الحقيقية المزمنة بين عواصف الرمل والغبار، فلك كل الحق أن تغتسل "نفسياً" بعد طول صبر وجلد.

وهو موضوع كما ترى لا تحسمه رسالة. فليكن لنا عودة إلى هذا الموضوع في إحدى اجازات الصيف المقبلة.

إن شام سعيدة باهتمام نوار بها وجمعه لصورها في البوم خاص. سنصورها قريباً ونبعث لكم بعدد من صورها الجديدة. إن هذه المخلوقة العجيبة تزداد رقة وجمالاً يوماً عن يوم... بحيث يتضاعف حبي لها بما لا يقاس بالأيام أو الأجيال. سلافة الصغيرة إن لم تكن جميلة مثلها فهي تكد باهتمام لتبلغ مستواها.

زارتنا ليلى قبل فترة برفقة شكيب. كانت تبدو جميلة وسعيدة

ومندهشة. ثم اصطحبتها سنية إلى الكوافير. فعادت بعد قليل وشعرها الذهبي الطويل مصروراً في محرمة. انه جزء آخر من طفولتها يتلاشى.

سنية بخير وهي تهديكم جميعاً تحياتها وأشواقها. وبالمناسبة كانت مع شام وسلافة طريحة الفراش لمدة أكثر من عشرة أيام بسبب رشح جماعي لم يترك أحداً منا سالماً دون عطاس وزربان أنف.

أحياناً اشعر بحنين عاصف للوالد والوالدة، وبقلق خفي ودون سبب واضح على صحتهما... ربما كان السبب عدم التقائنا دائماً، ولفترات طويلة... إن عاطفتهما الساذجة الباسلة تربطني بوثاق حديدي إلى اصغر حصاة في دارنا وغرفنا القديمة المتداعية.

عندما ننتقل إلى بيتنا الجديد في حي المزرعة، سأحاول استضافتهما أطول مدة ممكنة. أميرة كذلك، مخلوقة لا تبرح ذاكرتي أحبها لكبريائها، وجمالها المستوحش الذي لا يروض.

إنني منشغل الآن طوال الوقت في إعداد مسرحية جديدة مع دريد لحام.

إن الكتابة تنهك صحتي وتمزق أعصابي. ولكنها مصيري، ولا مهرب منه.

في بيروت تعرض لي الآن مسرحية جديدة "كتبتها قبل سنتين" ومشاريعي الأدبية كثيرة وتلاحقني كوخز الإبر.... لذلك بقدر ما تحتاج أنت إلى صخب المدينة وضيائها... احتاج أنا... إلى صمت الريف وظلمته المهدئة للأعصاب.

لك وللجميع قبلاتي وأشواقي...

أخوكم المشتاق

عزيزي أبو نوار　　دمشق ١٩٧٥/٥/٢١

نبرتك الحزينة المتذمرة جعلتني لا انهي الرسالة إلا وأنا مشبع بالتعاسة والشعور بالذنب.... مع اعتقادي بأن دوافع حزنك وتذمرك ليست مستعصية الحل. بل هي جزء من طبيعة مشاعرنا وتاريخ أيامنا. سأكتب إلى الوالد على الفور وأوصيه بتقنين طلباته المادية. وأنا واثق انه سيلتزم بها لأنه رغم بلوغه السبعين عاماً، ما هو إلا "طفل" كبير وليس هناك في العالم من هو اشد براءة وحناناً منه. وما إلحاحه على المساعدات المادية إلا نتيجة لخوفه المزمن من الفاقة والعوز.

وإذا نحن الذين من صلبه والذين نحمل ملامحه وطباعه لم نقدر ظروفه الماضية والحاضرة، من ننتظر أن يقدرها؟ لا احد.

سوف أحاول أن أرسل له خمسين ليرة شهرياً مهما كانت ظروفي واحتياجاتي. ولو أنني قادر في الوقت الحاضر لأرحتك من نصيبك في المساعدة.

ولكن انتقالي إلى البيت الجديد وما رافقه ويرافقه حتى الآن من نفقات وشراء لوازم واحتياجات ضرورية، يكاد يزهق أنفاسي. ومع ذلك فأنا سعيد وسنية سعيدة.... إذ لأول مرة منذ سنوات من الغربة والتشرد من بيت إلى بيت ومن حارة إلى أخرى نسكن في منزل هو ملك لنا.

سلافة بخير وقد أرسلناها إلى أحضان جدتها أم محمد... يبدو أن الوالد والوالدة في فرح غامر بها وبتربيتها... ولأن سلافة تشبهني كثيراً في الملامح و"الأخلاق" فقد قالت أمك بعفويتها الرائعة: ها هو محمد يعود إلي بعد أربعين سنة... طفلاً من جديد، أما شام فحدث ولا حرج عن جمالها وعذوبتها... وثرثرتها.... إنها النجمة المضيئة التي غسلت كل ظلمات الماضي...

وأنت كيف صغارك الذين يكبرون؟ إن لشهرزاد مكانة خاصة في قلبي.... لأن شام تذكرني بها عندما كانت في مثل سنها.... وعندما كنت أنت لا تزال طالباً في كلية الحقوق، ونوار العزيز أما زال "ينطح" من يريد مداعبته؟ وسهير الثرثارة أو بالاحرى أمون العلي... الجديدة كيف حالها... لها مني ومن شام ولشهرزاد ونوار أحر أشواقنا.

كما لك وللعزيزة أم نوار واختنا الغالية أم إسماعيل وأبو إسماعيل أطيب تحياتنا وأشواقنا وسنية دائماً تسأل عن أخبار أعزائنا في الطبقة.

أخوكم المشتاق

محمد

دمشق ١/٤/١٩٧٨

والدي الحبيب
والدتي الحبيبة
تحية قلبية وبعد

أولاً وقبل كل شيء طمنونا عن الصحة والعافية والريجيم، إنني اسأل عنكم باستمرار. وكم يكون فرحي عظيماً عندما اعلم بأن صحتكم جيدة وإنكم لا تشكون من شيء. كما نسأل دائماً إذا كانت الغرفة العتيدة قد انتهت وسكنتم فيها. وعندما جاءت أم إسماعيل لعندنا مع سلافة قضت السهرة وهي تحدثنا عن الغرفة وعن حاجتكم للشمينتو وكانت كعادتها تفلفل القصة وتزيد عليها.

نحن جميعاً بخير والحمد لله وشام وسلافة في الحضانة. وشام متفوقة بشكل عجيب على جميع رفاقها في الصف، وهي مضرب المثل عند المعلمات في الذكاء والحساسية ودقة الملاحظة. ومولعة بدروسها ولعاً كبيراً وخاصة مادة الحساب.

أما سلافة فلم تتعلم حتى الآن من كل الحضانة سوى: (ليمونة يا ليمونة... بابا جبلي ليمونة). لكنها في البيت قوزة حكي لا تسكت عن الثرثرة لحظة واحدة. وهي من حيث الجمال والذكاء تكاد تلحق بأختها شام.

وفي رسالة قادمة سأبعث لكم بصورٍ لهما في عيد ميلاد شام الخامس الذي أقمنا من اجله حفلة صغيرة في البيت وقد التقط المصور عدداً من الصور الجميلة سنرسل لكم بعضاً منها، لأن شام وسلافة دائماً يتذكران "جدو وستو" وسلافة كلما تضايقت من موضوع، تحضن لعبتها وتهدد قائلة: أنا هربانة لعند ستو بالطبقة، فتقول لها شام: يا الله مع السلامة.

وختاماً أرجو لكم دوام الصحة والسعادة وطول العمر. كما أرجو تبليغ سلامنا جميعاً إلى الأخوة والأخوات والأقرباء كافة. وإذا كان صار السلبين فأرسلوا لنا بعضاً منه بالبيض ولكم تحياتي وقبلاتي.

ولدكم المشتاق

محمد

أقدم صورة عائلية للشاعر ـ السلمية / ١٩٣٦ /

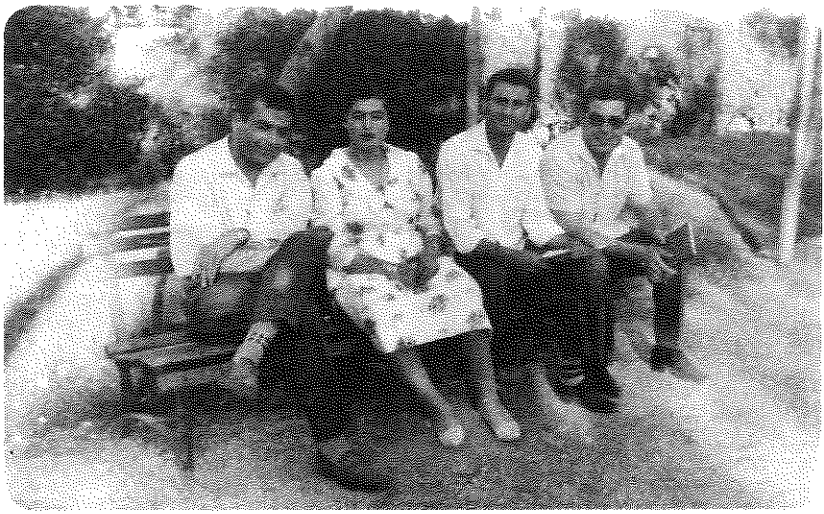

مع أخته وزوجها وأخيه

مع طفل منذ أكثر من ٥٠ عاماً

حوار ضاحك بين النجم عادل إمام، والكاتب السوري محمد الماغوط، تسمعه ضاحكة سيدة المجتمع رزان الشطي.

مع دريد لحام في محضر الساعة العاشرة ١٩٧٤

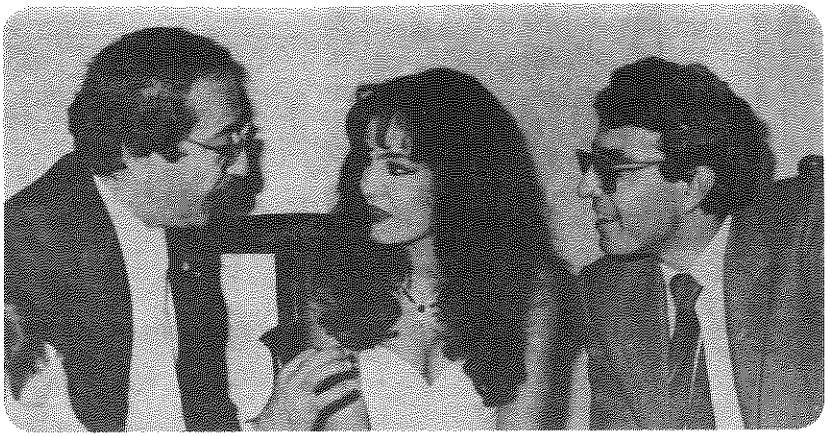

دريد لحام على مقربة من شريهان دائماً، ومعهما في الصورة رياض نعسان آغا، مدير برامج تلفزيون دمشق.

النجمة السينمائية بوسي، مع الكاتب السوري محمد الماغوط، الذي وصف في القاهرة بـ «البطل المعلوم والمجهول»لفيلمي الحدود» و«التقرير»

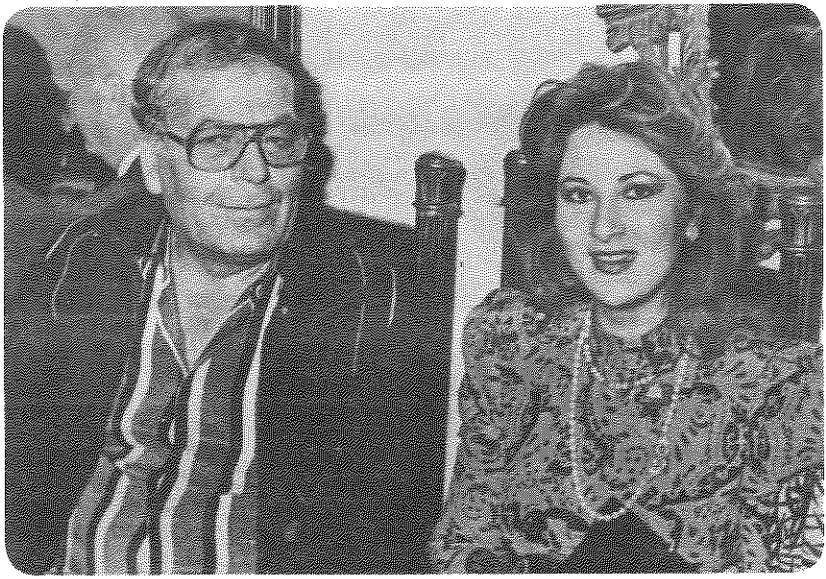

في عز الشباب

الماغوط جاساً على الأرض في إحدى جلسات «شعر» وخلفه يوسف الخال أدونيس أنسي الحاج إدفيك شيبوب وجميل جبر

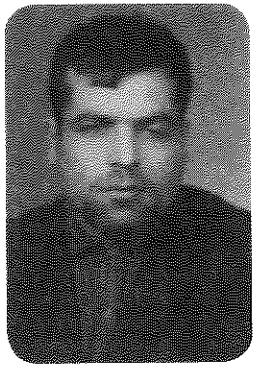

الكهولة المبكرة

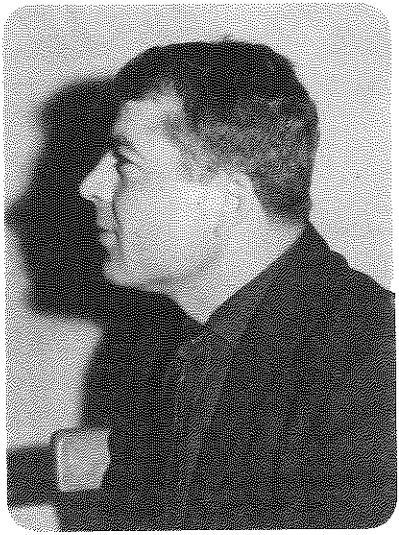

في شرخ الشباب يتمنى لو يكون متفائلاً

بتكليف من الرئيس الأسد.. اللحام يعزي بوفاة الماغوط

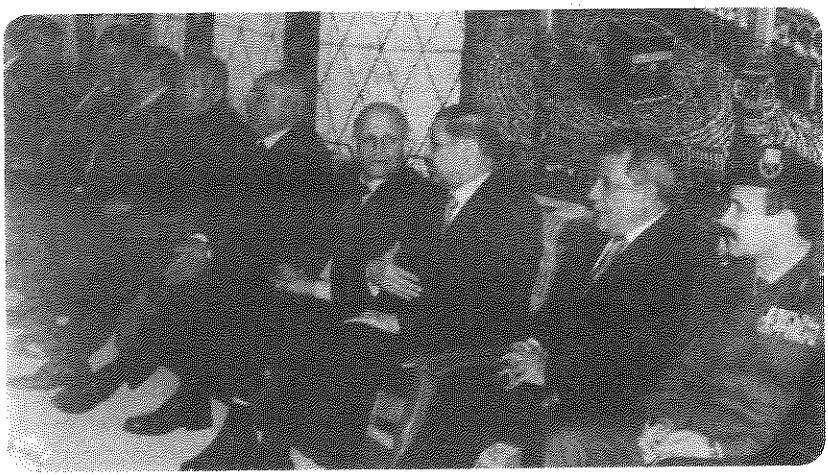

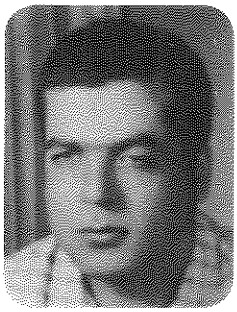

على أبواب الشباب

في عز الشباب

يتمنى لو يرى أملاً

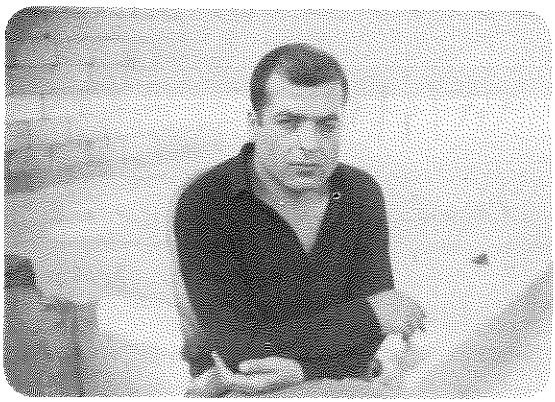

في باحة داره

في باحة الدار.. وكانت واسعة تنام مع الريح.. والمطر والأصوات
الغرائب.

كنت أمشي متفردة وكرسي من الخيزران لأسترخي لشمس الشتاء
في الدفء.. وأنت تجلب لي السجائر والمجلات وتشتري الحلوى للأخوة
الصغار.. وكان أبي يدعيني كثيراً يغريني على قماش ويمشي في سوقه
وبين المنازل المتشابهة في دمشق.. يسأل الباعة الشفاء ويطرق كالعرس الحزين.
ولذا يا أمه هلك في قلبي منذ الطفولة الحزينة أحسب شبابي فداءه..
لك حبي يا أمي.. وكل ما أستطيع.. ولكن حتى القلم يخونني إنه
رأسي مليء بالأفكار.. ولكني لا أستطيع المواصلة بين الحب وأحاسيس
لأحزان الخطة الذهبية كشلال من المشاعر.

أخي لقد سررت جداً بزيارتك الجميلة وإني أنتظرها ثانية في
الصيف وأنا مسرور جداً لأنه أصبح بخير وأنا أنتظر جواب هذه
الرسالة بفارغ الصبر يجب أن تزيد طرحة ورأيته وعلى وجه
لطيفاً يحمل السلام ولا أقول لكم أنا مشتاق فأنا كل يوم
للقاء المقبل وفياً لك حبي وأشواقي الحارة

المخلص
[illegible]

٤/٢/٩٥٦

العنوان

قيادة موقع دمشق - العريف محي الدين ...

ب ع ٩٠

أخي الحبيب عيسى

ساعات طويلة قضيتها وأنا أتمتّع بعطر من رسالتك .. أعرف حضور الياسمين من حروفك .. في ثنايا العطور .. لفراشي مخدّة الياسمين .. لحبّي (؟) إليك يا نفسي كعصفورة حذرة قرب النهر.

أعطني قنديلاً دليلة معتّقة لذّكرك لك من الحب والشوارع والبقايا فأنا إنسان حب وورد وآهة .. أحدّث عن نوافذ الرخام المشولة في حضن قاسيون والعربات القديمة تحت المطر فأنا أحب التجوال والسير أمام المقاهي ودور السينما .. فجمال بلادي عظيم بلادي التي لم يسيل من نهرها حليب الأرجوان ..

مع بردى أسير .. مع أنّاته الحزينة تحت الجسور ودموعه التي تتوزع على البيوت والجوامع .. على بلاط الأزقة العتيقة .. لمن لي مع الورود المهجورة قبلة منذ الصباح .. وفي غابات الزيتون المتجهمة للأطفال تباهي قصيدة وموجة [illegible].

أنا إنسان حب وورد وآهة من الماضي .. من الطفولة التائهة في الطين .. أتذكرنا طفولتي يا عيسى ؟؟ سأهديك سنة منها تحدّث تقول لله عني أنا أحبك .. غيمة شديدة الاصفرار .. نشوانة خوف الريح .. تلفلفت أزرار البحر.

طفولتي .. حزينة ومتعبة كشاطئ من السفن المعبأة بالحزن كانت .. جوع وحرمان وتشاؤم .. كنت صغيراً لا أتذكر .. أبيع العلكة والشاذب أمام الدكاكين .. ألعب الوحل .. وآكل الخبز في الزوايا وفي ليالي الشتاء الطويلة كنت أنظم الشعر الخط كالمجنون مع

دمشق في ٥/ ١١ ٢٥٢

أخي عيسى!

تحية طيبة وبعد

لا بد أنك قلق بأنني استطعت [illegible] وذكرك أكثر من أي إنسان في الوجود وهذا ما تعرفه جيداً والسبب في تأخيري عن الكتابة إليك هو أنني كنت أنتظر منك رسالة بعد ذهابك إلى حلب لتعلمني بما حدث معك وقد قال لي محمد أنك ستوصل لي رسالة وانتظرت حتى وصلتني رسالتك الأخيرة .. منذ أيام [illegible] ...

تسأل كيف تقضي أوقاتك في دمشق .... إنه يكفيني أن أكون بعيداً عن [illegible] الوحدة القاتلة في العالم إنني أكرهها جداً لأنها [illegible] إنني أذهب إلى [illegible] الساعة [illegible] بعد الظهر والعود إلى [illegible] حيث أتناول الطعام وبعدها إما [illegible] رفيقاتي لسهرة سوية مع [illegible] وإما أذهب (للسينما) أو [illegible] وكتابة فقط وقراءة صحف ومجلات وهكذا!... وإنني [illegible] جداً أن تكون عندي وإنني [illegible] عن عملي [illegible] وباهتمام حتى تم ذلك سأرسل لك رسالة لتحضر لعندي ولكن أتمنى من الله أن تكون في [illegible] في دار المعلمين لأنه خير لك ولمستقبلك ...

لا تتأثر يا عيسى فإنني متفائل جداً بمستقبلك مستقبل زاهر ومثمر بعد تلك الصفحة التي اجتزناها قد [illegible] من قلبك المخلص البريء كن واثقاً من نفسك ولا تدع الحزن والقلق [illegible] أبداً فإن نفسك [illegible] بالوحدة والهم والحزن.......

كيف حالك يا عيسى ... وكيف تقضي أوقاتك ... أكتب لي عن كل شيء .... لأنني أريد أن أعرف كل شيء عنك ...... لا تنسى أخواتك ... يجب أن يبقى في المدرسة الأهلية لأن ذلك ضامن لمستقبله .....

كيف [illegible] ... البيت [illegible] كثيراً ... ارسل لي صورتك في جواب هذه الرسالة مع صورتك كيف والدتك وأخواتك جميعاً ووالدك ..... إنني لست مسروراً منه ...

... [illegible] فالدكتور [illegible] لعندي إلى [illegible] وسوية [illegible] رغم [illegible] كما أنني [illegible] بأنه [illegible] أولاد [illegible] في دمشق ... [illegible] إلى [illegible] إنني أتمنى لك [illegible] من كل قلبي لأنك الوحيد الذي أعتمد عليه في هذه الحياة فلا تخيب ظني ... لا تبالي بالأعداء [illegible]

أنتم انضموا بجانبه نظيفاً ... ولم أعاود ذلك لأنهم لم يسمحوا لي بهذا بعد
[illegible] لم [illegible] ولكني أسير فقط [illegible] [illegible] فقرة مع قصته وقصته
[illegible] ... ولكنه أكبر بأنه يحتفظ بالرسائل والصور [illegible] جداً [illegible]
[illegible] ... وأنا أعدل بأنه [illegible] الأمر [illegible] وطول لا تعرف
أنهم [illegible] [illegible] واحدة من [illegible] [illegible]

[illegible] باستطاعتي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ولكن [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] فقط ...
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] ... [illegible] [illegible] ...
[illegible] [illegible] هذه الرسالة [illegible] [illegible] [illegible] الذي [illegible] [illegible]
[illegible] ...
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] وخصوصاً الرسالة القادمة [illegible] (تحفة)
[illegible] إلى [illegible] [illegible] ...
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ... [illegible] [illegible] إلى أي [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] مع صورتك وصورة زوجتي ...
[illegible] [illegible] إلى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ... [illegible] صورة زوجتي
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ... [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

الدبكة مع أخيه وجهاد سعد وعبد الإله فرهود

مع أخيه وجهاد سعد وعبد الإله فرهود وأميمة الطاهر

مع جهاد سعد وشقيقه وزوجة شقيقه

مع نضال أشقر وزاهي وهبة وزوجة شقيقه

مع نضال أشقر وزوجة اخيه

في حفل تكريم

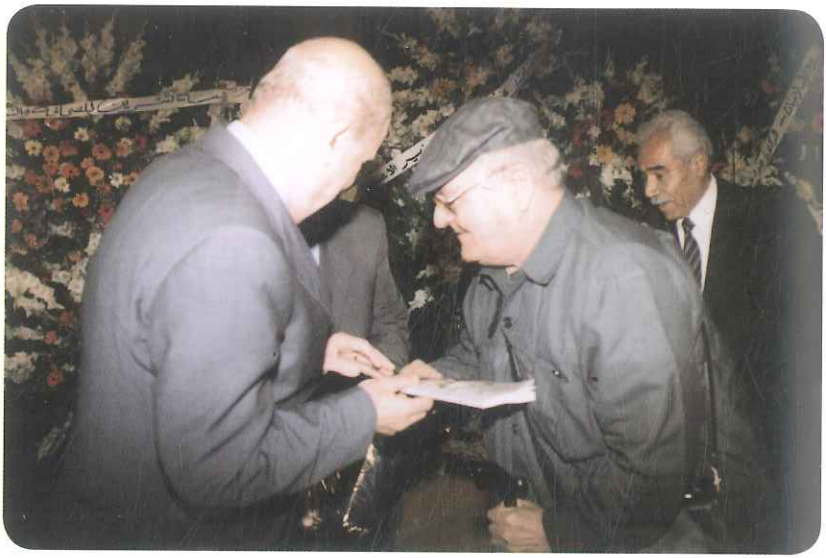

وزير الإعلام عدنان عمران يكرمه

في حفل تكريم

مع إبن شقيقه الإعلامي نوار الماغوط

المؤلف بين إبنه نوار وإبنة أخيه سلافة

مع أبنته

والده ووالدته

سنية مع زوجة أخيه وإبنتها

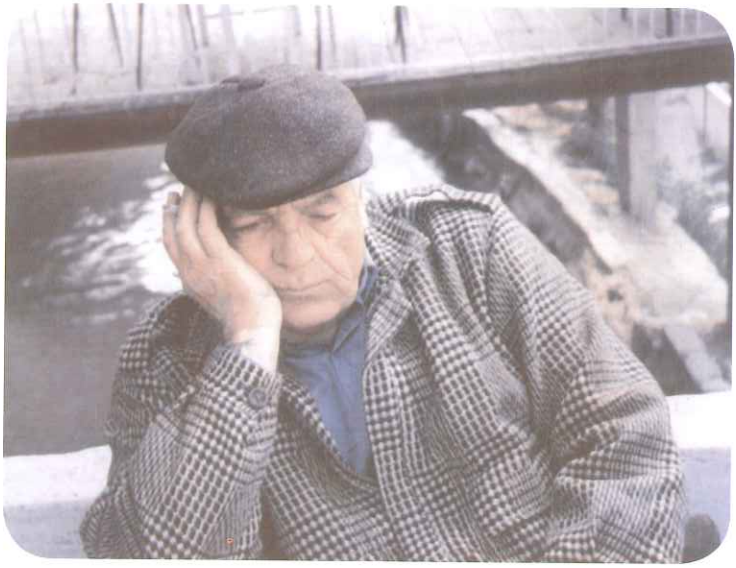

على ضفاف «نهر السين»

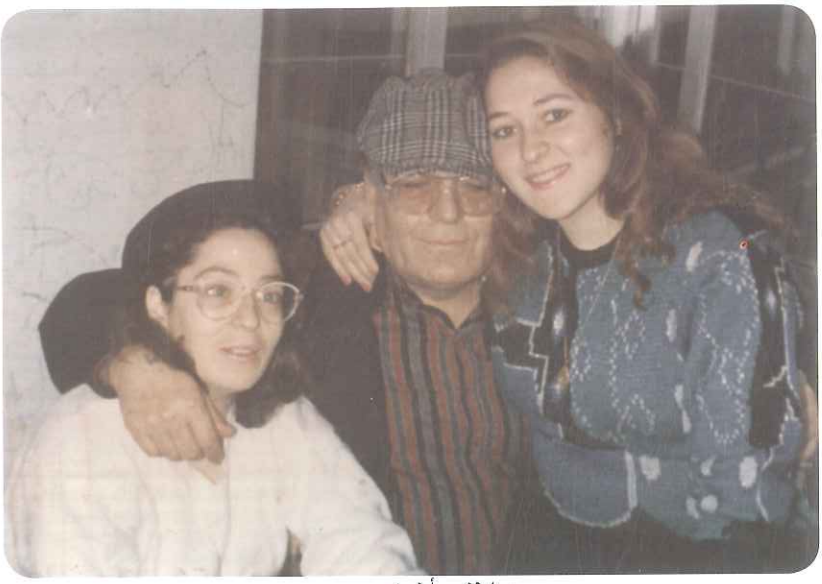

مع إبنتي أخيه

مع عائلة أخيه

مع أبنة أخيه

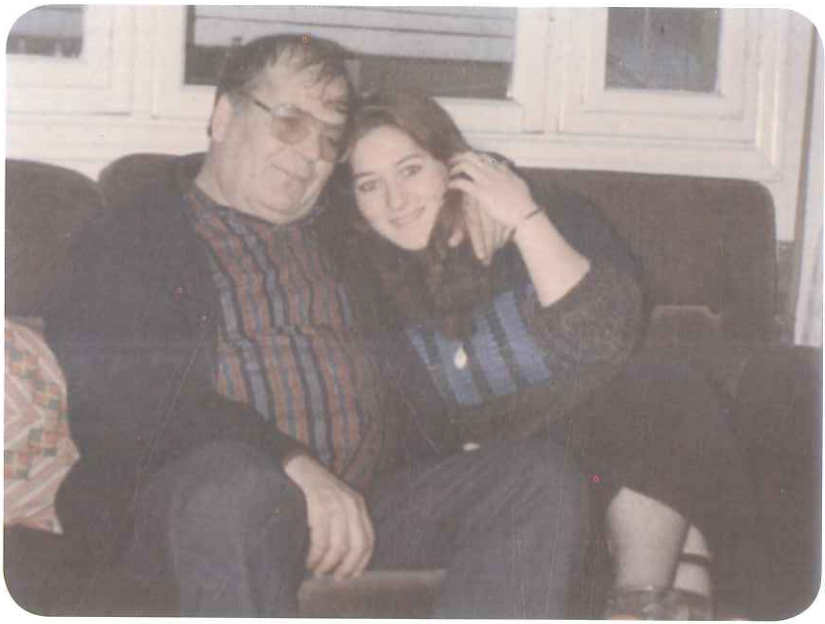

شام وسلافة تتوسطهما
إبنة عمهما

شام مع شهرزاد

مع إبنة أخيه شهرزاد

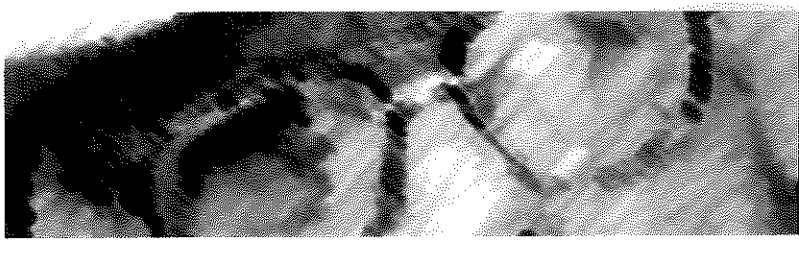

ISBN 2-84305-990- X

تصميم الغلاف ريم الجندي